لجنة حفظ الآثار العربية

دار الآثار العربية

تاريخ ووصف

الجامع الطولوني

تأليف

محمود عكوش

بلجنة حفظ الآثار العربية

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

لجنة حفظ الآثار العربية

دار الآثار العربية

تاريخ ووصف

الجامع الطولوني

تأليف

محمود عكوش

بلجنة حفظ الآثار العربية

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــدير

الحمد لله رب العـالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ، فانى خلال مدة الاثنتين والعشرين سنة التى قضيتها فى خدمة لجنة حفظ الآثار العربيـة تملكتنى عاطفة الشغف بهـذه الآثار والتعلق بهـا . ولا جدال فى أن مصدر هـذه العاطفة هو إعجابى بأعمال اللجنـة و إطلاعى على ما تحت إشرافها من الكنوز الثمينة . لذلك ، كنت عنـد وضعى لهـذا الكتاب فى "تاريخ ووصف الجـامع الطولونى" مدفوعا بهـذه العاطفة لبـذل كل مجهود لدى فى انتقاء مواضيعه وترتيبهـا مع الإيجاز، على أمل أن أخرجه فى الحلة اللائقة به باعتبار أنه العمل الأوّل من نوعه فى المصنفات العربية .

ولحسن الحظ قد وقع الإختيـار على مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة لإصداره، فوجدت فى إدارتها العضد المشكور،

الذى قام به حضرة الفاضل محمـد افندى نديم ملاحظ المطبعة من همـة وعنـاية فى طبع الكتاب على هـذا الوجه الحسـن . أحسن الله الى حضرات موظفيها وعمالها جميعا .

وقد تحريت فى وضعه أن أرجع على قدر الطاقة — مع علمى بعجزى وقصورى — الى كثير من الألفـاظ التى كان مصطلحا عليها فى العمارة العربية فذكرت الجوائز ، والأرجل ، والأقواس ، والبلاطات ، والطاقات ، وغير ذلك . وأدخلتها فى سياق الكلام على أسلوب يسهل معه على القارئ ادراك المقصود منها بلا حاجة الى الشرح المخل أو التطويل الممل .

ولم أتجاوز عن ذكر المراجع التى استندت اليها ، أو اقتبست منهـا ، فلم اقتصر على من ذكرتهم فى المقدّمة من كبار المؤلفين الذين عوّلت على أقوالهم كما تقضى به أمانة النقل . وفى ذكـر المراجع عون لمن يريد زيادة فى البحث والدرس .

محمود عكوش

فهـــرست المواضـــيع

*

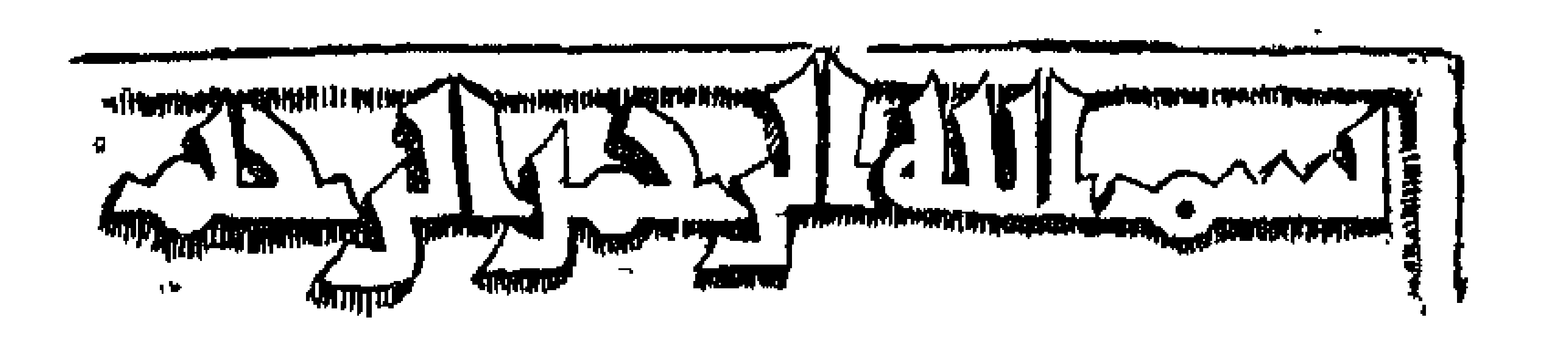
(١) من مقال للستر وليمس وغيره بتصرف .

فهـرست الاشكال

فهـــرست اللوحات

تاريخ ووصـــف

الجـامع الطولوني



مقدمة

أقبــل العلماء الأوربيون على البحث في الآثار العربيــة بوادي النيــل عموما والقاهرة على وجه خاص يدرسون تاريخها ومبانيها حتى أصبحت جاذبا يستهوى لرؤيتها أفئدة القادمين على البلاد من أنحاء العالم .

ولا نغالي ومرجعنا أقوال الثقات المتضلعين في علم الآثار العربية إن أكدنا أن العالم كله بما فيه رومية لا توجد فيه مدينة قديمــة تضارع القاهرة بما فيها من الآثار المنقوشة عليها التواريخ[1] والكتابات .

وفي ذلك ما يدفعنا نحن المصريين الى الاهتمام بدرس هـذه الآثار حتى لا نلام على عدم تقديرنا لهـا .

(١) خطاب جناب مستر فرنل لحضرة صاحب المعالي رئيس لجنــة حفظ الآثار العربية بتاريخ ١٥ يونيه سنة ١٩٢٢

وقد كان خلو البلاد الى الآن من المدارس الخاصة بعلم الآثار العربيـــة وصدور المؤلفات بلغة فنية بحتة ممـا يحول دون ميل الجمهور الى الإقبال على زيارة هذه الآثار ودراستها . لذلك تملكنا السرور لمـا وضعت وزارة المعارف نظام الرحلات العلمية الذى يسمح للأساتذة والطلبـة بمشاهدة آثار العاصمة وسماع المحاضرات من بعض الاخصائيين العارفين بها (١) .

والمأمول أن تتولد عن هـــذا النظام فوائد جمة بجانب العناية والجهود التى توجهها لجنة حفظ الآثار العربية لهذه الآثار بإذاعة المعلومات القيمة عنها بطريق الكتابة والنشر، فقد وضعت المؤلفات الجليلة ككتابى جامع السلطان حسن وحفريات الفسطاط وغيرهما ومنشوراتها السنوية والنبذ التى تصدرها بصـــفة ملحقات وهى تتضمن الفوائد الجليلة ممـا يجب التوســـع فى نشره فى القاهرة والأقاليم، إلا أنه بالنظر لكثرة عدد الأجزاء الصادرة منها وتعذر اقتنائها على الأفراد وتشتت المواضيع بين صفحاتها كل ذلك يجعلها غير كافية للقيام بحاجة الجمهور .

(١) وهنا ننوه بفضل زميلنا حضرة يوسف أحمد أفندى مفتش الآثار العربية لأنه أوّل مصرى جاهد فى سبيل الدعاية للآثار العربية بطريق المحاضرات .

وقد راعت ذلك لجنة حفظ الآثار العربية فنبهت اليه غير مرة – كما يتبين من الاطلاع على محاضر جلساتها – ورأت من الضرورى وضع الرسائل المنفردة والفهارس فأصدر المرحوم هرتس باشا كتاب وصف جامع جانم البهلوان[1] ثم حالت الظروف دون الاستمرار فى ذلك .

وقد رأينا أن نحاول القيام بشىء من هذا القبيل وغرضنا أن نهدى للجمهور عن كل أثر مهم رسالة صغيرة تتضمن بحثا مكتوبا بلغة سهلة واضحة عن وصف الأثر وصفا إجماليا وشىء من تاريخه ومميزاته الفنية ليتمكن الجمهور المصرى من الوقوف على أهمية ما هو موجود فى البلاد من الآثار الباقية مما شيد الأجداد فتنبعث فى قلوبهم المحبة لها والحرص عليها ونكون بذلك قد حققنا رغبة طالما ردّدتها لجنة حفظ الآثار العربية وشجعنا على تنفيذها حضرة صاحب المعالى جعفر ولى باشا وحضرة صاحب السعادة محمد زغلول باشا لما كانا بوزارة الأوقاف .

وكان فى عزمنا ألا نخرج كثيرا عن نسق الرسالة البديعة التى كتبها المرحوم هرتس باشا عن جامع جانم البهلوان والنبذ

(١) هذا الكتاب باللغة الفرنسية وقد انتهيت من نقله الى اللغة العربية وأصبح معدّا للنشر .

الأخرى التى كان يصدرها بصفة ملحقات لمجموعة اللجنة السنوية وأن يكون اعتمادنا فيما نكتبه على مؤلفات مؤرّخى العرب وغيرهم من العلماء الاخصائيين فى العهد الحاضر أمثال ڤان برشم وسالمون وسلادين وهرتس باشا وكوربت بك والكپتن كريسول وجاستون ڤييت وغيرهم .

وبعد أن وضعنا خلاصة للرسائل الأولى باللغة الفرنسية[(١)] عنّ لنا أن نعرضها على حضرات الأساتذة سان پول جيرار والكپتن كريسول وأوجو مونريه فأعربوا لنا عن ارتياحهم اليها ووقعوا بذلك على النسخة الأصلية فوجدنا فى تشجيعهم ما يبرر تقديمها الى لجنة حفظ الآثار العربية فعرضناها على جناب مسيو لاكو وحضرة صاحب السعادة مرقص سميكة باشا ففحصاها ووقعا عليها بوجوب طبعها ونشرها بمعرفة لجنة حفظ الآثار العربية .

وكانت فاتحة هذه النبذ التى شرعت فى وضعها باللغة العربية ما عنّ لى عن جامع أحمد بن طولون ولم أراع فى ذلك الأقدمية التاريخية للأثر لأن جامع عمرو وإن كان أقدم منه تاريخا وأنشئ قبله بنحو ٢٤٤ سنة على عهد الفتح الإسلامى لمصر إلا أنه

(١) كتبت بالاشتراك مع حضرة ايلى افندى ذكور المحرر بادارة الآثار العربية .

لم يتخلف لنا شيء من مبانيه الأصلية بسبب التغييرات والتجديدات التى توالت عليه تحت حكم الدول العديدة التى تعاقبت على مصر .

أما جامع ابن طولون فان المؤرّخين يعتبرونه أهم أثر عربى فى مصر بالنظر الى أقدمية مبانيه وما بقى فيه من معالم الفن العربى من العصر القديم .

وقد عرضت النسخة الأصلية على حضرة صاحب المعالى محمد شفيق باشا فتفضل حفظه الله بقراءتها ولاحظ أن إخراجها كما هى موجزة يجعلها « غير وافية من جهة التاريخ ولا مشبعة المعمار فيما يخص العمارة » وأشار بالتوسع فيها أكثر من ذلك مع ذكر الأطوال والعروض والارتفاعات وإلحاقها بفتوغرافيات المنارة والفسقية والبوائك والقبلة والكتّابات والسقف . ومن الاطلاع الآن على هذه الرسالة يظهر أنى حاولت جهدى فى إبرازها على نسق يقرب مما أشار اليه حضرة صاحب المعالى محمد شفيق باشا، فاليه يرجع الفضل فى ظهورها على هذه الصورة . وأرجو أن أكون بوضع هذه الرسالة قد قمت بقسط من الواجب الوطنى وحققت شيئا من الرغبة التى أبداها مجلس النوّاب عند فحصه لميزانية دار الآثار العربية .

ولا ننسى أن نثبت للأستاذ العلامة جناب مسيو جاستون ڤييت مدير دار الآثار العربية فضله فى نشر هـذه الرسالة تحت رعاية لجنة حفظ الآثار العربية فى عهد رئيسها المفضال صاحب المعالى الأســتاذ الجليل محمد نجيب الغرابلى باشا وزير الأوقاف الذى تفضل فأقر طبعها فى الوقت الذى توجهت عنايته فيه الى تنفيذ قرار البرلمـان وإخراج كتاب حفريات الفسطاط باللغة العربية .

وقد وفقنا الله الى هذا العمل فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا المـلك ملك مصر المعظم فؤاد الأوّل أطـال الله أيامه وحفــظ أنجـاله ؟

محمود عكوش

* * *

نذكر هنا مع الشكر أن بعض الأشكال المحلاة بها هذه الرسالة هى من عمل صديقنا وزميلنا القديم مسيو ج . رومى من مهندسى اللجنة السابقين .

وقــد أعارنى جناب الكپتن كريسول مؤلف كتاب "الآثار الإسلامية فى مصر" كثيرا من الصور الفتوغرافية التى عملت منها اللوحات التى حليت بها هذه الرسالة .

تمهيـــــد

قدم أحمد بن طولون الى مصر ونزل بالعسكر ثم بنى القصر والميدان وأنشأ القطائع، وفيها شيد الجامع المشهور باسمه .

العسكر — كان أمراء مصر ينزلون الفسطاط منذ اختطها عمرو بن العاص بعد الفتح حتى جاءت المسوِّدة وهى جيوش بنى العباس مع صالح بن على وأبى عون فى طلب مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية لما فر الى مصر سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية (٧٥٠ م)[١] فعسكرت بظاهر الفسطاط فى الصحراء التى يشرف عليها جبل يشكر . وكانت فضاء تعرف بالحمراء القصوى وليس بها من العمائر غير عدّة كنائس وديارات للنصارى[٢] فأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها فبنوا المحال والأسواق والدور العديدة وبنى صالح بن على دارا للإمارة . وفى سنة ١٦٩ هجرية

---

(١) الكندى صحيفة ٩٦ وكان دخول صالح بن على الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ (الكندى صحيفة ٩٧) .

(٢) قال المقريزى : خربت الكنائس والديارات شيئا فشيئا الى أن خرب آخرها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون (جزء أول صحيفة ٣٦٠) وقال أبو صالح ومن أشهر كنائس الحمراء كنائس ميناس وأونيفريوس (أبى نفر) ومرقوريوس وصوفيا ومقار والملائكة الأربعة (ايفتس و بتلر ص ١٠١ وما بعدها) وقال القضاعى : انما قيل الحمراء لنزول الروم بها (الخطط للقريزى أول ص ٢٩٨ وابن دقاق رابع ص ٥).

(٧٨٥ و ٨٦ م) بنى ابنه الفضل جامعا فنشأت فى هذا المكان خطة جديدة صارت تعرف بالعسكر[١] .

وكان العسكر يمتد على شاطئ النيل والنيل وقتئذ أقرب الى الشرق من موضعه الحالى لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر[٢] .

وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر المجرى (العيون) وشمالا شارع مراسينا الى ميدان السيدة زينب حيث كانت قناطر السباع[٣] أمام المشهد الزينبي وغربا بين شارعى

---

(١) العسكر مجتمع الجيوش وكان قوّاد الجيوش الاسلامية يسمون به المدن التى ينشئونها محل معسكراتهم من ذلك عسكر أبى جعفر المنصور ويراد به مدينته التى بناها ببغداد وعرفت بباب البصرة فى الجانب الغربى وما يقاربها ونزل بها فى عسكره فسميت بذلك (معجم البلدان) .

(٢) عن تنقلات النيل راجع تاريخ وطبوغرافيا القاهرة ومذكرات المعهد العلمى الفرنسى ج أول ص ٤١٥ وكازانوفا « تاريخ ووصف القلعة » الوارد فى تلك المذكرات ج سادس لوحة ٣ والقاهرة أصلها واتساع نطاقها بقلم جناب مستر هزول ومنشورات الجمعية الجغرافية فى المجلد الحادى عشر ص ١٧١ — ١٧٦ (ديسمبر سنة ١٩٢٢) وقد سبق لى نقل هذه المقالة الى اللغة العربية ونشرت فى مجلة الهندسة .

(٣) قناطر السباع أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعا من الحجارة تمثل رنكه ولها نظير على قناطر أبى المنجا الباقية للآن بناحية ميتنما (قليوبية) ولما أنشأ الملك الناصر محمد ابن قلاون الميدان السلطانى على الشاطىء الأيمن للخليج رآها عالية ضيقة فهدمها وبعد أن جددها ووسعها وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) أرجع اليها السباع ثم اعتدى عليها أحد المشايخ ويعرف بمحمد صائم الدهر كما فعل بوجه أبى الهول ظنا منه أن هذا الفعل من جملة القربات (الخطط للقريزى جزء ثان ص ١٤٦ باختصار) .

وقد وصف روجرس بك سباع بيبرس فى مقالة عنوانها « الرنك عند أمراء الاسلام فى مصر والشام » (راجع مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٨٨٠ ص ٨٣ وما بعدها) .

السد والديورة وشرقا خط تصورى يمتـد من مصطبة فرعون بجـوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا الى باب السيدة نفيسة المعروف قديما بباب المجدم (راجع أيضا خطط المقريزى أول ص ٣٠٥ وثان ص ٢٦٥) .

واستمرت دار صالح بن على منذ بنائها ينزلها الأمراء . وكانت فيما بين جامع أحمد بن طولون وكوم الجارح (الخطط للقريزى جزء ٢ ص ٢٦٤) . فلما كانت سنة ١٤٦ هجرية (٧٦٣ و ٦٤ م) ظهـرت دعوة بنى الحسن بن على بمصر فاتفق جماعة ممن بايعوا له على أن يسيروا الى المسجد الجامع (١) بالفسطاط ويستولوا على بيت المال (٢) فعمدوا اليه وانتهبوه وتضاربوا بسيوفهم وعلم أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور ذلك فكتب الى يزيد بن حاتم والى مصر وقتئذ يأمره بالتحوّل من العسكر الى الفسطاط وأن يجعل الديوان فى كنائس القصر (٣) .

(١) أى جامع عمرو بن العاص . (٢) الكندى : ولاة مصر ص ١١٢ ، ويوجد الآن بحماة ودمشق وغيرهما من بلاد الشام فوارات فى بعض المساجد العتيقة فوقها أبنية تعتبر أمثلة من بيوت المال القديمة . (٣) الخطط للقريزى جزء أول صحيفة ٣٠٧ ، والمراد بالقصر حصن مدينة بابليون المعروف بقصر الشمع بالفسطاط المشهور فى تاريخ الفتح الاسلامى ولا تزال آثاره باقية بمصر القديمة وبه عدة كنائس أثرية مهمة والظاهر أن هذا القصر من بناء تراجان سنة ١٠٠ ميلادية .

وكان على مقربة من حصن آخر يماثله بنى قبله بستة قرون . ويقال إن مدينة بابليون عرفت بهذا الاسم لنزول قوم من أهل بابل بها وكانوا فى جيش قمبيز لما احتل مصر ثم انشقوا عليه . ومن الغريب أن مؤرخى =

القصر والميدان — لما قدم أحمد بن طولون من العراق أميرا على مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نزل دار الإمارة بالعسكر وكان لها باب الى الجامع ، ولما ضاق عليه العسكر لكثرة اتباعه وحاشيته ويحتمل أنه رآه غير حصين تحول عنه واتخذ لاقامته مكانا منعزلا فسيح الأرجاء حيث يوجد الآن ميدان صلاح الدين الذى عرف بالرميلة وقره ميدان والمنشية . وكان فضاء يمتد الى ما وراء جامع السلطان حسن الآن فأمر بحرث ما فيه من قبور اليهود والنصارى واختط موضعها قصرا عظيما يحميه من ورائه الشرف الذى بنيت عليه القلعة وكان وقتئذ يكاد يكون مهجورا . وليس فى وسعنا تعيين موقعه على وجه أوضح من ذلك لأن أقوال أصحاب الخطط عنه لم يرد فيها إلا أنه كان تحت قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل (1) (الخطط للقريزى أول ص ٣١٣) .

= العرب لما نقلوا هذا الاسم عن الروم حافظوا عليه ولم يقولوا بابل وهو الاسم الذى كانوا يعرفون به المدينة الأصلية التى نزح منها أولئك المنشقون ولفظ شمع الملازم لاسم الحصن مشتق من كلمة قبطية (خيمى) ولا صحة لما ذكر عن أصل هذه التسمية من أن الريان بن الوليد كان يوقد به الشموع وغير ذلك من الأساطير المدونة فى كتب الخطط (راجع كتاب الكنائس لا يفتس ص ٧٢ رقم ٤ «ملحوظ بتلر» والأسماء القبطية فى القاهرة لكازانوفا ص ١٦١ ومذكرات چان مسبيرو وفييت عن جغرافيا القاهرة ص ١٦٩) .

والباقى الى الآن من بنائه العتيق جزء من السور وأبراجه والمدخل القبلى .

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بترميمه ولا تزال الأعمال جارية فيه .

(١) قلعة الجبل هى قلعة القاهرة بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش وأخذت لها الأحجار من بعض الاهرامات الصغيرة بالجيزة وكان الشروع فى بنائها سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) .

وحوّل أحمد بن طولون السهل الممتد بين هـذا القصر وجبل يشكر الى ميدان كبير يضرب فيـه بالصوالجة[1] وتأنق فى بنائه تأنقا زائدا (المقريزى ثان ص ١٩٧) .

واشتهر الميدان وغلب اسمه حتى صار القصر يعرف به فكان من يقصد القصر اذا سئل عن ذهابه يقول الى الميدان .

وعمل للميدان أبوابا لكل باب اسم، وهى : باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالجة وباب الخاصة ولا يدخل منـه إلا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلى جبل المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه إلا خادم خصى أو حرمة وباب الدرمون لأنه كان يجلس عنده حاجب أسود عظيم الخلقة يتقلد جنايات الغلمان السودان الرجّالة فقط يقال له الدرمون وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج وباب الساج لأنه عمـل من خشب الساج وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم ومنـه يخرج عند التوجه الى الصلاة وعرف هـذا الباب أيضا ببـاب السباع لأنه كان عليـه صورة سبعين من جبس .

(١) خطط المقريزى أول صحيفة ٣١٥ والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عنـد الانكليز والفرنسيين باسم « بولو » وهى شبيهة بلعبة « كرة القدم » وانما تلعب على الخيل .

وكان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون على الميدان يوم العرض ويوم الصدقة .

واختط الميدان فى شعبان سنة ٢٥٦[1] هجرية (٨٧٠ م)

وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع . وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم فاذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللا أمر له بما يتسع به ويزيد فى تجمله . وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلى ذلك، فكان متنزها حسنا[2] .

القطائع — وتقدّم أحمد بن طولون الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا واقتطع كل واحد قطيعة ابتنى بها فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القوّاد فى مواضع متفرقة فعرف ذلك المكان بالقطائع وعمر عمارة حسنة وتفرّقت فيه السكك والأزقة وبنيت فيه الطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها فقيل :

(١) الكندى (ولاة مصر) ص ٢١٥ وصبح الأعشى ثالث ص ٣٣٤ والمقريزى أول ص ٣١٩ وابن دقاق رابع ص ١٢٢

(٢) خطط المقريزى أول ص ٣١٥

ســوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين وســوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى الفسطاط وأكثر وأحسن وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين . ولكل من الباعة سوق حسن عامر . وامتدت هذه المبانى الى العسكر والفسطاط حتى أصبحت المدن الثلاث بلدا واحدا عامرا لاتصال مبانيهـا ببعضها . وكانت القطائع تمتـد غربى القلعة يحـدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة ومن الغرب نواحى المشهد الزينبى ومن الجنوب العسكر[١] .

ويومئذ أهملت دار الإمارة التى ابتناها صالح بن على بالعسكر[٢] واستقر الأمر على ذلك بعد ابن طولون أيام ابنه خمارويه وولديه : حسن وهارون . وزادت العمارة بالقطائع فى أيامهما وكثرت الناس فيهـا حتى قتل هارون بن خمارويه بعد قتل أبيه وأخيه . وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قبـل المكتفى

---

(١) قال السيوطى : وهى مدينة بناها « أحمد بن طولون » ما بين سفح الجبـل حيث القلعة الآن وبين الكبارة وما بين كوم الجارح وقناطر السباع فهذه كانت القطائع (حسن المحاضرة ثان ص ١٥٢ طبع الموسوعات) .

(٢) حوالى سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) على عهد المقريزى لم يبق للعسكر ذكر بل كان اسم القطائع هو المعروف (سالمون قلعة الكبش و بركة الفيل صحيفة ٥) .

بالله ووصل الى مصر فى سنة ٢٩٢ ﻫ (٩٠٥ م) وقد ولى الطولونية عليهم شيبان بن أحمد بن طولون فتسلم محمد بن سليمان البلد منه وهدم القصر وقلع أساسه وبيعت أنقاضه وخرب موضعه حتى لم يبق له أثر[١] .

وبقيت القطائع عامرة الى أن وقعت الشدّة العظمى[٢] زمن الخليفة المستنصر فى القرن الخامس الهجرى فخربت هى والعسكر وظاهر مصر مما يلى القرافة ثم نقل ما فى هذه الأماكن من الأنقاض وصارت فضاء وكيانا فيما بين مصر والقاهرة وفيما بين مصر والقرافة (خطط المقريزى أوّل ص ٣٠٥) . وقد كان الاضمحلال بدأ فيها منذ أنشئت القاهرة .

وكلّ معلوماتنا الآن عن القصر والميدان والقطائع مستمدّة مما كتبه المؤرّخون إذ لم يتخلف من آثار ذلك العهد غير الجامع الطولونى .

(١) قال ابن دقاق : إنه رأى فى بعض التواريخ أن المعتضد بالله العباسى أمر بذلك حنقا على أحمد ابن طولون (الانتصار رابع ص ١٢١ و ١٢٢) . وكان البدء بهدم الميدان فى شهر رمضان سنة ٢٩٣ هجرية (الكندى ص ٢٦٣) .

ولقد لبث موضع أبنية الطولونية بعد تخريبها زمنا طويلا مشغولا بالبساتين (قلعة الكبش لسالمون ص ١٠) .

(٢) الشدّة العظمى يراد بها الوباء والفتن التى حلت بمصر فى عهد المستنصر الفاطمى مدة سبع سنين من سنة ٤٥٧ — ٤٦٤ ﻫ (١٠٦٥ — ١٠٧٢ م) (راجع خطط المقريزى ج أول ص ٣٣٥ وما يليها) .

الجامع الطولونى

الجامع الطولونى هو الثالث فى ترتيب المساجد الجامعة[1] التى أقيمت فيها صلاة الجمعة فى مصر بعد الفتح . بناه الأمير أحمد بن طولون على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة بينها وبين الفسطاط فى حى السيدة زينب الآن وهو أقدم مساجد مصر بلا نزاع بل أقدم آثارها العربية بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة[2] . واليه يؤدّى طريقان :

(١) كان المسلمون فى صدر الإسلام يجمعون الجمعة فى المدن فى مسجد واحد يطلقون عليه مسجد الجماعة لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح البلدان كتب الى أمرائه بالبصرة والكوفة ومصر أن يتخذ كل منهم مسجدا للجماعة و يتخذ للقبائل مساجد فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده . ولما قدم أحمد بن طولون مصر كانت الجمعة تقام بجامع عمرو و بجامع العسكر فلما بنى جامعه أبطلت الخطبة من جامع العسكر وصارت تقام بجامع عمرو و بجامع ابن طولون .

وفى عهد الفاطميين كانت الخطبة تقام فى جامع الحاكم والجامع الأزهر وجامع أحمد بن طولون وجامع مصر . ولما استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة عمل بمقتضى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقر الخطبة بالجامع الحاكمى من أجل أنه أوسع فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه نحو مائة عام الى أيام الملك الظاهر بيبرس فأعيدت الخطبة فيه بعد أن أخذت فتوى العلماء بجواز الجمعة فيه (خطط المقريزى جزء ثان ص ٢٤٤ و ٢٧٥ و ٢٧٦) .

(٢) راجع وفيات الأعيان جزء أول ص ٣٣٩ و ٣٤٠ وابن دقماق رابع ص ١١٤ و ١١٥ والمكافاة لابن الداية طبع الجمالية بمصر ص ١١٠ ومارسيل فى كتاب وصف مصر ج ١٨ «مقياس النيل» .

الطريق الأول : يسلك اليه من ميدان المشهد الزينبي فشارع مراسينا حتى مسجد صرغتمش بأوّل الصليبة حيث يوجد بجانب الوجهة القبلية من هـذا المسجد سلم يوصــل الى الباب الغربى لمسجد ابن طولون ، واذا جاوز القادم من هـذا الطريق جامع صرغتمش وجد ساحة كبيرة تخلفت من هدم طائفة من المنازل كانت تحجب واجهة الجامع البحرية بينه وبين الحارة التى كانت تعرف ببئر الوطاويط [1] . وفى النهاية الشرقية من هذه الساحة عطفة يسلك منها الى باب المسجد الشرقى .

الطريق الثانى : يسلك فيــه من شارع محمد على فالسيوفية فالركبية الى أن يصــل الزائر الى ملتقى شارعى درب الحصـــر وابن طولون ثم ينعطف غربا فيمرّ بزقاقين فى صدر الثانى منهما باب المسجد الشرقى المتقدّم ذكره .

ولمـا يصل الزائر الى الزقاق لا يجـد بأوّله ولا بنهايته رحبة ولا ميدانا بل يجد على يمينه وشماله أبنية عالية مصفوفة على الجانبين بعضها من آثار القرن الحادى عشر الهجرى مما يجعل لهذه المنطقة

(١) راجع ما كتبه المقريزى فى الجزء الثانى ص ١٣٥ وسالمون ص ٤٤ و ٤٥ عن بئر الوطاويط

منظرا خاصا تتمثل فيه بقية من المعالم القديمة التى كانت تستهوى النظر بما اجتمع فيها من الموردات، والساباط[١] والسبيل .

واذا وقف الزائر فى وسط الزقاق وحوّل نظره نحو باب المسجد تمثله إطارا متوّجا بعقد ستينى يحيط بمنارة جامع صرغتمش الرشيقة القائمة أمامه فى الطرف الآخر على بعد[٢] (لوحة رقم ١) .

ويحيط بالمسجد من الجهات الأربع شوارع طولون والزيادة وبئر الوطاويط[٣] والخضيرى .

وكانت هذه الجهة تعرف بخط المغاربة .

السبب فى انشاء الجامع وما قيل عن بنائه فى هذا المكان — كان الناس يصلون فى جامع العسكر فلما قدم ابن طولون صار يصلى فيه الجمعة ثم ضاق على المصلين بجنده وسودانه وشكا

(١) الساباط سقيفة بين دارين تحتها طريق نافذ .

(٢) ولقد قال المرحوم هرتس باشا باشمهندس لجنة الآثار العربية سابقا إن المعالم الموجودة بهذا المكان تجعله من المواقع الجميلة الشائقة (مجموعة لجنة الآثار العربية — الفقرة الرابعة من ملحق كراسة سنة ١٩٠٩) وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بالمحافظة على هذه الأبنية وأجابت مصلحة التنظيم رغبتها فأقرّت على أن لا يمس هذا المكان فى مشروعاتها .

(٣) هذا الشارع تحوّل الآن الى ميدان .

أهل مصر اليه فعزم على بناء جامع فأشار عليه جماعة من الصالحين أن يبنيه على جبل يشكر وذكروا له فضائله فأخذ برأيهم .

قال ابن عبد الظاهر : وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه . ويقال إن الله تعالى كلم موسى عليه (صبح الأعشى ثالث ص ٣٤٤) .

وقد اختلف الرواة فى سبب تسميته بجبل يشكر، فقال القضاعى : ينسب الى يشكر بن جزيلة من لخم قبيلة من قبائل العرب اختطت عند الفتح بهذا الجبل فعرف بجبل يشكر لذلك (خطط المقريزى أوّل ص ١٢٥ وصبح الأعشى ثالث ص ٣٤٤) .

ونقل الحافظ جمال الدين اليغمورى : أن يشكر المنسوب اليه هذا الجبل كان رجلا صالحا (ابن دقماق ص ١٢٣ جزء رابع) .

قال المقريزى : وكان هذا الجبل يشرف على النيل وليس بينه وبين النيل شىء وكان يشرف على البركتين أعنى بركة الفيل[١] والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون[٢] .

(١) راجع عن بركة الفيل الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٦١ وسالمون « قلعة الكبش » ص ٤٨ وما بعدها . (٢) راجع عن بركة قارون الكتاب السابق أيضا ج ٢ ص ١٦١ وسالمون « قلعة الكبش » ص ٣٥ وما بعدها .

وعلى هــذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى كانت تجرّب قبل إرسالها الى الثغور (الخطط أوّل ص ١٢٥) .

ثم قال : وبجوار جبل يشكر الكبش[1] وهو جبل كان يشرف على النيل من غربيه ، ولما اختط المسلمون الفسطاط بعد فتح أرض مصر صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى .

حديث الكنز ــ قال جامع السيرة الطولونية : إن أحمد ابن طولون بنى جامعه مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون (الخطط للقريزى ثان ص ٢٦٥) .

وقال المقريزى عن مسجد التنور: إنه بأعلى جبل المقطم من وراء قلعــة الجبل فى شرقيها . ويقال إن تنور فرعون لم يزل فى هــذا الموضع بحاله الى أن خرج اليه قائد من قوّاد أحمــد ابن طولون يقال له وصيف قاطرميز وحفر تحته وقدر أن تحتــه مالا فلم يجد فيه شيئا وزال رسم التنور وذهب (الخطط للقريزى ثان ص ٤٥٥) .

(١) نقل سالمون أسطورة جاء فيها : إن كاهنة مصرية اسمها «برصا» كانت حاكمة على الوجه البحرى وأقامت على جبــل يشكر طلسما على هيئة كبش من الحجر الأحمر حتى اذا اقترب العدوّ نبه عن حضــوره . (قلعة الكبش صحيفة ٧٧) .

والظاهر أن هـذا الخبر الأخير هو الأصل الذى صدر عنه حديث الكنز[1] .

(١) مما يدل على أن هذا الخبر من قبيل الأساطير العديدة التى أوردها المقريزى ورود الكلمات الآتية فيه وهى " مما أفاء الله عليه " فان هذه الكلمات واردة فى كتابة الجامع مجرّدة من ذكر المال الذى قيل بوجوده على الجبل . والمراد بها على ما أرى الفىء وهو كما جاء فى التعريفات : " ما ردّه الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم فى الدين بلا قتال . إما بالجلاء أو المصالحة على جزية أو غيرها " .

وقد فهم الأستاذ فان برشم من هذه الألفاظ ما يتفق مع هذا القول (مجموعة الكتابات المنقوشة القاهرة أوّل ص ٣٨ رقم ٣) .

ولكن جناب الأستاذ ڤييت مدير دار الآثار العربية بالقاهرة يستبعد فى تعليقاته المدوّنة فى منشورات المعهد العلمى الفرنسى فى المجلد الثانى والخمسين ص ٨٠ و ٨١ أن يبنى ابن طولون الجامع من أموال لم تكن ملكا خالصا له وعلى الخصوص أموال الدولة ويعنى بذلك أنه بناه من مال لم يكن من قبيل مال الفىء الذى هو للدولة وأشار الى أن منشئى الجوامع كانوا يحرصون على التنويه بذلك فى الكتابات العربية المنقوشة على الآثار فكان المنشئ ينقش عليها فى الحجر ما يدل على أن ما أنشأه أنفق عليه من خالص ماله . أما الألفاظ التى وردت فى كتابة الجامع التاريخيــة فانها مقتبســة من القرآن الشريف (آية ٦ و ٧ سورة ٥٩ التى هى سورة الحشر) وتجىء نادرا لأن الفىء ضريبة تجبى بلا قتال والمتداول فى النقوش التاريخية من ماله أو من خالص ماله أو من فيض نعم الله على عبده أو مما أنعم الله على ... .

وقد ذكر الأستاذ ڤييت كتابة أخرى ترجع الى سنة ٧٢٥ هجرية وردت فيها تلك الألفاظ وهى منقولة من جامع المهمندار بالقاهرة ونصها "أمر ببناء هذه التربة والمسجد المبارك من خالص ماله مما أفاء الله عليه وطيبه لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة ... " (مذكرات المعهد العلمى الفرنسى المجلد ٥٢ ص ٨٠ و ٨١) .

وهذا الاعتراض وجيه وانما يلاحظ أن ليس مايمنع بناء المسجد من مال الفىء خصوصا وأن جامع ابن طولون أقيم لضرورة ضيق العسكر على المصلين وفى بنائه مصلحة عامة ويجوز أن يكون ما أنفق عليه من نصيب ابن طولون فى الفىء .

على أن بناء المساجد من الفىء معروف وورد فى الخبر الآتى : أن عمر بن عبــد العزيز أراد أن يجرد ما فى قبلة مسجد دمشق من الذهب وقال : إنه يشغل عن الصلاة فقيل له يا أمير المؤمنين إنه أنفق عليه من فىء المسلمين وأعطياتهم وليس يجتمع منه شىء ينتفع به فأراد أن يبيضه بالجص فقيل له تذهب النفقات فيه =

تاريخ إنشاء الجامع (لوحة رقم ٢) — قال المقريزى : ابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث وستين ومائتين هجرية (٨٧٦ و ٧٧ م) وفرغ منه فى سنة خمس وستين ومائتين (٨٧٨ و ٧٩ م)[(١)] .

وذهب آخرون منهم أبو المحاسن بن تغرى بردى وابن دقماق الى أن أحمد بن طولون شرع فى بنائه فى سنة ٢٥٩ ﻫ (٨٧٣ و ٧٤ م) .

وخالفهم الكندى فقال : ابتدأ فى بنائه سنة أربع وستين ومائتين هجرية وقضى فى سنة ٢٦٦ ﻫ[(٢)] (٨٧٩ و ٨٠ م) . والصحيح هو ما أورده المقريزى، فقد ثبت ما قاله عن تاريخ الفراغ من البناء لأنه وارد فى كتابة الجامع التاريخية وهى منقوشة فى لوح من الرخام بالقلم الكوفى البسيط بخط ممتلئ قليل الارتفاع متقارب الحروف .

وكان ما رسيل السابق على غيره بنشر كتابتين تاريخيتين للجامع فى أطلس كتاب وصف مصر وهما فى لوحتين نقلتا من بعض

= فأراد أن يستره بالخزف فقيل له ضاهيت الكعبة فبينما هو كذلك إذ ورد عليه وفد من الروم فاستأذنوا فى دخوله فأذن لهم وأرسل معهم من يعرف الرومية وقال : احفظوا ما يقولونه فلما وقفوا تحت القبة قال رئيسهم كم للاسلام ؟ فقالوا : مائة سنة . قال : فكيف تصغرون أمرهم ما بنى هذا البنيان إلا ملك عظيم ؟ وأتى الرسول عمر فأخبره . فقال : أما إذ غايظ العدو فدعه . وهذا صريح فى أنهم كانوا ينفقون على المساجد من الفىء « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص ١٩٢ ج ١ » .

(١) الخطط للقريزى ثان ص ٢٦١ (٢) ص ٢١٩

قطع من الرخام مكسورة ومجموعة بعضها ببعض، والنص فى الكتابتين واحد مع اختلاف طفيف (راجع مجموعة الكتابات المنقوشة "القاهرة" لڤان برشم ص ٢٢ ومذكراته ج ٢ ص ٦ فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٩١ ص ٥٢٧ وما يليها)[١] .

وفى سنة ١٨٩٠ بينما كانت لجنة حفظ الآثار العربية تجرى بعض الأعمال بالجامع عثر بين الأنقاض على بعض قطع من الرخام جمعت ورتبت فتألف منها اللوح الموجود الآن . وهو النصف من إحدى كتابتى مارسيل .

وهذا نص ما اشتمل عليه من الكتابة :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم الملك الحق المبين الله لا إله إلا هو الحى (٢) القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى (٣) الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم و (٤) ما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات و (٥) الأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم محمد رسول الله والذ (٦) ين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون

(١) راجع أيضا اللوحة العشرين الملحقة بتاريخ مارسيل « مصر » طبع سنة ١٨٤٨

فضلا (٧) من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم (٨) فى التورية ومثلهم فى الإنجيـــل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ (٩) فاستوى على سـوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا (١٠) وعملوا الصالحات منهـــم مغفرة وأجرا عظيما كنتم خير أمـة أخرجت للنـاس تأ (١١) مرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب (١٢) لكان خيرا لهم إنمـا يعمر مساجد الله من آمن بالله واليـــوم الآخر وأ (١٣) قام الصـــلوة وآتى الزكوة ولم يخش إلا الله فعسى أولئـك أن يكونوا (١٤) من المهتدين أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤ (١٥) منين أدام الله له العز والكرامة والنعمة [ا]لتامة فى الآخرة والأو (١٦) لى ببناء هـذا المسجد[1] المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليـه وطيبه (١٧) لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة وإيثارا لمـا فيه تسنية الدين (١٨) وألفة المؤمنين ورغبة فى عمارة بي[ت] الله وأداء فرضه وتلاوة ك[تا] (١٩) به ومداومة ذكره إذ يقول الله تقدّس وتعـالى فى بيوت أذ[ن] الله أن ترفع

(١) كان يطلق حتى ذلك الوقت لفظ مسجد كما فى هذه الكتابة على الجوامع كلها بلا تمييز ثم صارت الجوامع الكبيرة بمصر تعرف بالجامع لما تقام فيها صلاة الجمعة .

و (٢٠) يذكر فيهـا اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيع عن (٢١) ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيـه القلوب والأبصار (٢٢) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من [فـ]ضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (٢٣) فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين سبحان ربك رب العزة عما يصفون و(٢٤) سلم على المرسلين والحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا (٢٥) وآل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كأفضل ما صليت وترحمت وباركت على إبراهيم (٢٦) ...... وعلى آل ابراهيم وأنعم إنك حميد مجيد .

وقد أورد كوربت بك هـذه الكتابة فى رسالته التى وضعها عن هذا الجامع بعنوان "حياة وأعمال أحمد بن طولون" المدرجة فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٨٩١ وقد تخللها نقص فى بعض المواضع وتحريف فى النقل . ومن تعليقاته عليها قوله : إن هذه الكتابة على ما يعلم أقدم كتابة تاريخها معروف ، ثم نوه عن قول مارسيل فى البحث الذى وضعه عن مقياس النيل فى كتاب وصف مصر[1] (فى المجلد الخامس عشر ص ٣٢٩) إن جزءا من

(١) كتاب وصف مصر يشتمل على مجموعة عظيمة من الأبحاث فى موضوعات شتى من عمل علماء فرنسا الذين كانوا مع نابليون بونابرت لما أغار على مصر وقد جمعت فى سنة ١٨٠٩ فى عدة مجلدات بهذا الاسم .

كتابته يرجع الى المأمون يعنى الى سنة ١٩٩ هجرية (٨١٤ ميلادية) والى عمارتى المتوكل أى الى سنة ٢٣٣ هجرية (٨٤٧ ميلادية) و ٢٤٧ هجرية (٨٦١ ميلادية) وكانت العمارة الأخيرة على عهد أحمد بن طولون نفسه إلا أنه يرى أن هذه الكتابات على كل حال لا تتعدى بعض الكلمات .

والصحيح أن قسما من كتابة المقياس أقدم عهدا من كتابة تاريخ الجامع الطولونى وهو من الآيات الشريفة والكاتب له أحمد بن محمد الحاسب فى سنة ٢٤٧ هجرية . وكان واردا فى هذه الكتابة اسمه واسم المتوكل وتاريخ الكتابة ثم أزيل ذلك فيما بعد واستبدل ببعض الآيات الشريفة بخط أقل إتقانا من الخط الأصلى وكلاهما بالكوفى ومن السهل معرفة النص الأصلى وما استبدل منه بالمقابلة بين المكتوب على جدران بئر المقياس و بين ما أورده ابن خلكان فى ترجمة أبى الرداد فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٧ ، ولولا أن هذا البحث خارج عن الموضوع لشرحناه شرحا وافيا وما جرنا اليه غير إشارة كوربت الى قول مارسيل .

وبجانب هذه الكتابة التاريخية توجد بالجامع كتابات أخرى كبيرة الأهمية من أزمنة مختلفة يعرف منها تاريخ التجديدات والعمارات التى وقعت فيه . وسيأتى الكلام عليها .

مهندس الجامع — ذكر المقريزى أن الذى تولى بناء الجامع لأحمد بن طولون كان رجلا نصرانيا حسن الهندسة حاذقا بها وكان عهد اليه ببناء عين بظاهر المعافر(١) وجعل عليها قناطر لا تزال بقية منها موجودة الى الآن. واتفق أنه لما فرغ من بنائها وأقبل أحمد بن طولون ليتفرج عليها غاصت يد فرسه فى موضع لم يجف بناؤه فغضب على المهندس وضربه وأمر به الى المطبق (السجن) فأقام به مدة .

ولما أراد أحمد بن طولون بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود وقيل له لا تجدها أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك فلم يرض وبلغ الخبر المهندس النصرانى وهو فى المطبق فكتب اليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة فأحضره وسأله فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة . فأمر أن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه ووضع المهندس يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبنى الى أن فرغ من جميعه وبيضه (الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٦٥ باختصار) .

(١) راجع ما كتبه المقريزى عن بركة المعافر فى الفصل الخاص ببركة الحبش .

وقد بحث كثير ممن كتبوا عن الجامع فى أمر هذا المهندس فقال بعضهم : كان بيزنطيا[1] . وقال البعض : قبطيا . وعلل الأوّلون قولهم بأن الطرز البيزنطى واضح فى أقدم أجزاء الجامع وهى أقوال مبنية على الظن والتخمين وقد مهد لها الطريق سكوت الرواة والمؤرّخين عن ذكر اسم المهندس ونحن لا ننكر أن الفن العربى لم يكن بلغ أشدّه بعد وأن الضرورة كانت كثيرا ما تقضى بالاقتباس من المألوف من أساليب الصناعة عند الأمم الأخرى واستحضار مهرة الصناع من فارس والروم كما قال بذلك ابن خلدون وغيره من كتّاب العرب (مقدّمة ابن خلدون ص ١٧٣ وابن جبير صحيفة ٢٦٢ طبع ليدن ومسالك الأبصار ج ١ ص ١٨٣) .

ولكن الذى يحملنا على ترجيح أن المهندس كان عراقيا مسلما كان أو نصرانيا هو ما أثبته ابن دقماق والمقريزى بوجه خاص عن هذا المسجد من أن بناءه أقيم على مثال بناء جامع سامرا (الانتصار ج ٤ ص ١٢٣ والخطط ج ٢ ص ٢٦٦) ومطابقة ذلك للواقع كما سنبينه .

---

(١) قال رونيه فى كتابه ''مصر'' : كان المهندس سوريا وقد يكون بيزنطيا قدم من سوريا (ص ٤٤٥) وقال ستانلى لين پول لو كان بيزنطيا لقال عنه المقريزى روميا (القاهرة ص ٧٨ فى الذيل) .

وقد شرح الكبتن كريسول هذا الموضوع جليا فقال : إنه على عهد بنى أمية كانت الدولة عربية خالصة وكان يغلب على العمارة التأثير السورى واستعمال الفسيفساء البيزنطية كما فى قبة الصخرة والجامع الأموى بدمشق وقصير عمرة وغير ذلك .

ثم انتقلت عاصمة الخلافة الى بغداد فى عهد بنى العباس وصارت مركزا لتطور الدولة فغلبت على العمارة العربية التأثيرات الفارسية أى أساليب العمارة الساسانية والعراقية .

ولما جاء ابن طولون من سامرا الى مصر حمل معه كل تقاليدها .

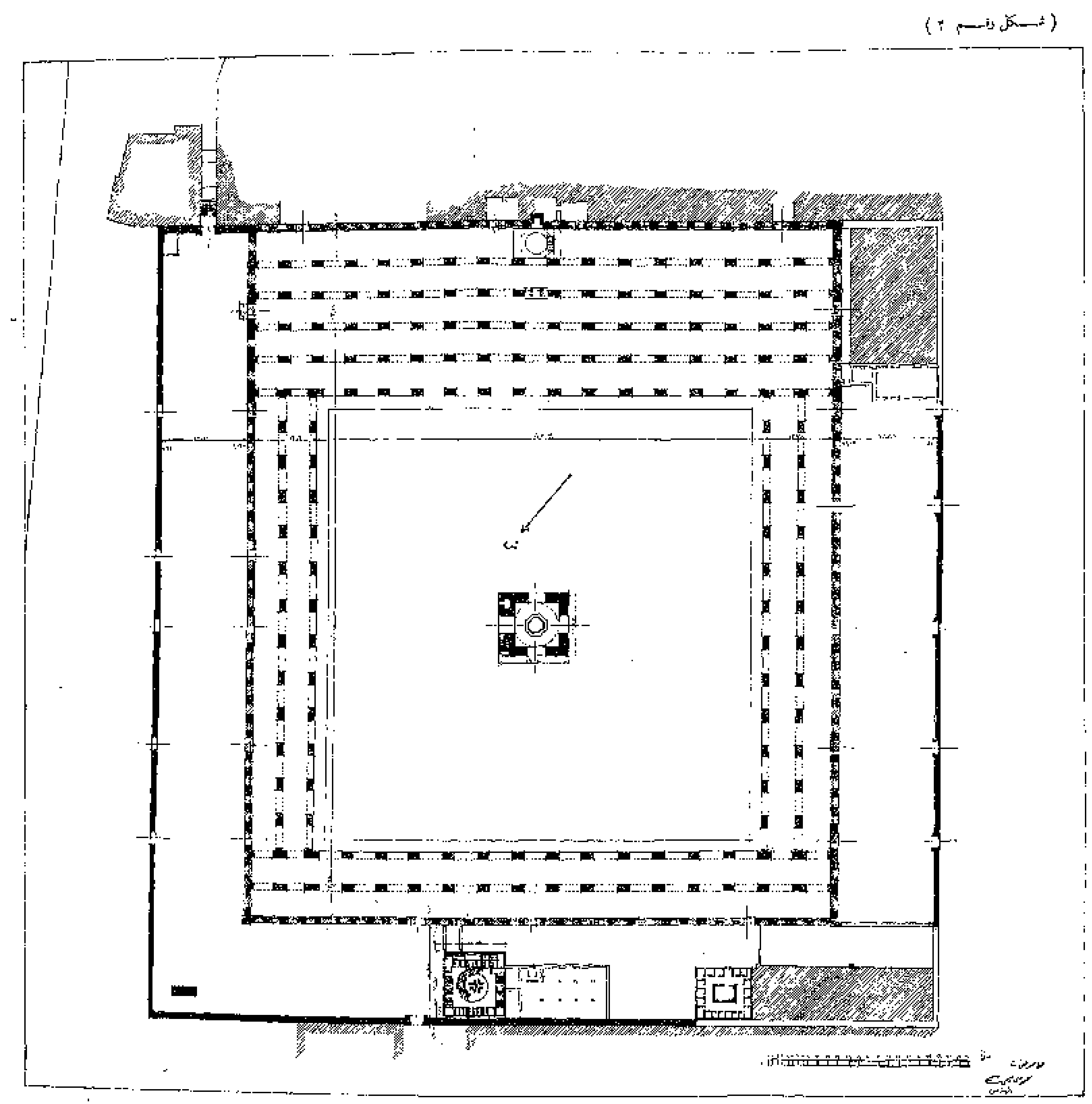
ولا يبعد أن يكون المعمار الذى شيد الجامع أحد أولئك المهندسين الذين اشتهروا فى تاريخ ذلك الوقت وأقربهم لعهد بناء الجامع أحمد بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس بجزيرة مصر[١] .

الصلاة فى الجامع — قال المقريزى : ولما كمل بناء جامع ابن طولون صلى فيه القاضى بكار[٢] إماما وخطب فيه أبو يعقوب

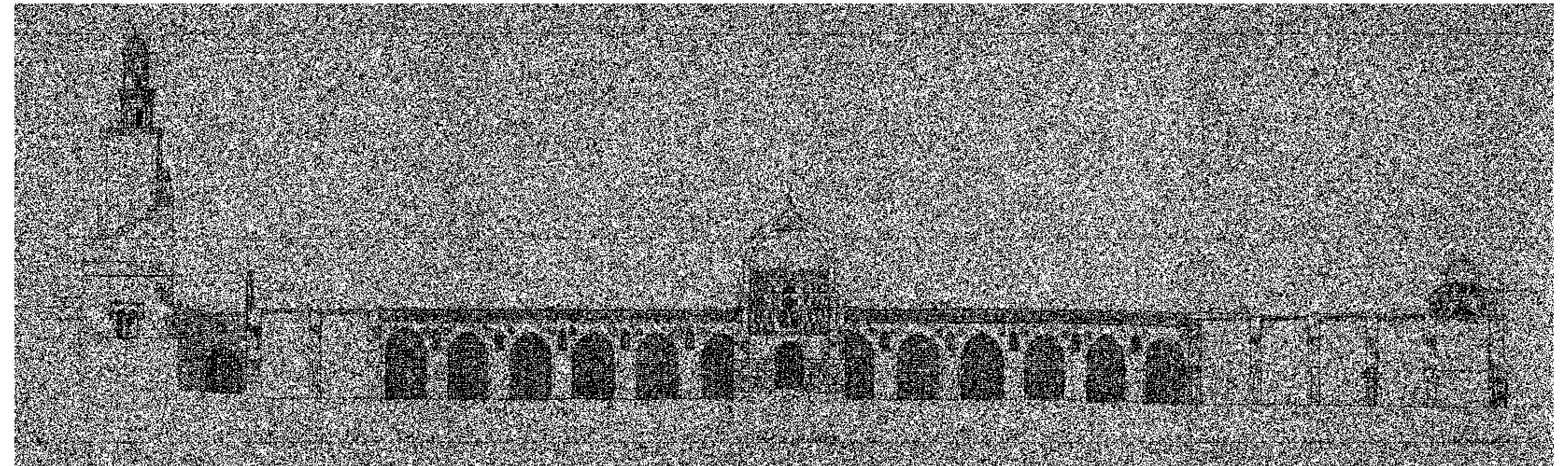
(١) كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية .

(٢) هو بكار بن قتيبة ولاه المتوكل القضاء فى مصر سنة ٢٤٦ فبق بها الى أن توفى سنة ٢٧٠ وسيأتى ما وقع له مع ابن طولون . وقد أفرد له أحمد بن عبد الرحمن بن برد ترجمة فى ذيل "كتابى الولاة والقضاة" لأبى عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى طبع بيروت ص ٤٧٧ وابن خلكان فى وفيات الأعيان أول ص ١١٣ و ١١٤ وابن حجر العسقلانى فى كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر» ص ٢٦

(شكل رقم ٢)



القطاع الأفقي للجامع



البلخى وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى ودفع اليه أحمد بن طولون فى ذلك اليوم كيسا فيه ألف دينار وعمل الربيع كتابا فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من بنى لله مسجدا ولو كمفحص[1] قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة" (ثان ص ٢٦٥) .

وصف الجامع ومساحته وتقسيمه — (راجع القطاع الأفقى شكل رقم ٢ واللوحة رقم ٣ والقطاع الطولى شكل رقم ٣) فى هذا المسجد يرى المثال الأوّل الذى اتخذه بناة المساجد الجامعة فيما بعد وقد بقى معمولا به فى هذه البلاد حتى فى العصور التى أدخلت فيها رسوم جديدة للجوامع عقب استيلاء العثمانيين على مصر ولما نقارن بينه وبين جامع عمرو يتبين لنا أن الوضع الأفقى فى المسجدين واحد مع وجود تفاوت بينهما من الوجهة الاركيولوجية "الأثرية" إذ بينما جامع عمرو زيد فيه وجدد مرارا فان جامع ابن طولون بقى على أصله .

وقد قال الأستاذ ڤان برشم أن هذين المسجدين اتفقا فى الوضع الأفقى ولكن هذا لا يقوم دليلا على ما كان عليه وضع المساجد قبل الجامع الطولونى .

(١) المفحص : الموضع التى تقيم فيه القطاة وتبيض كأنها تفحص عنه التراب وتكشفه والفحص : البحث والكشف .

وهو تقريبا على شكل مربع ضلعه ١٦٢,٥٠ × ١٦١,٧٣ (= ٢٦٢٨١,١٢٥ مترا مربعا أعنى ستة أفدنة ونصف) يشغل منه المسجد مع جدرانه مستطيلا مساحته ١٧٢٤٣,٨١٨ مترا مسطحا، ويتكون هـذا المستطيل من صحن مكشوف مربع ٩٢,٣٠ × ٩١,٩٥ أى ٨٤٨٦,٩٨٥ مترا مسطحا تحيط به بلاطات أى أروقة[1] من جوانبه الأربعـة مساحتها مع الجدران ٨٧٥٦,٨٣٣ مترا مربعا. ما هو بمقدم الجامع وفيه قبلته خمس بلاطات منها البلاطة التى تلى الصحن اندثرت وجدّدت قواعدها فى سنة ١٩٢٠

وما هو بكل من مؤخره وجانبيه بلاطتان . وحول بلاطات المؤخر والجانبين أى من الجهات الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والغربية الجنوبية ثلاثة أروقة خارجية تعرف بالزيادات مسطحها مع جدرانها ٩٠٣٧,٣٠٧ مترا .

وهـذه الزيادات تكمل مساحة المربع الكلى للجامع اذا ضمت الى المستطيل المكوّن منه المسجد نفسه (راجع الشكل رقم ٢) .

(١) يجرى خطأ على ألسنة بعض المشتغلين بعلم الآثار لفظ إيوان إذا أرادوا ذكر الأروقة التى بمقدم هـذا المسجد ومؤخره وجانبيه على أنه لم يرد فى التاريخ أن هـذا اللفظ استعمل فى هـذا المعنى قبل إنشاء المدارس .

وقد ذكر ابن دقماق الأروقة الخارجية باسم الزيادات وأورد سببا لبنائها فقال : إن الجامع ضاق على المصلين فقالوا لأحمد نريد أن تزيد لنا فيه زيادة فزاد فيه هذه الزيادة بظاهره (ج ٤ ص ١٢٣) .

وقال الكبتن كريسول : إن ما يسميه ابن دقماق بالزيادة هو من أصل بناء المسجد ومثله موجود فى جامع سامرا [١] .

ومن ذلك يتبين أن هذه الزيادات الثلاث ليست إلا أروقة خارجية وقد سماها ابن دقماق رواقا فى موضع آخر فى قوله : ويقال إن ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك [٢] سوى الرواق المحيط بجوانبه الثلاثة (ج ٤ ص ٦٦) .

ومما يدل على أن الأروقة التى من هذا القبيل اتخذت فى غير هذا المسجد قول سلادين فى موجزه الفن الاسلامى "العمارة"

(١) هذه المدينة كانت وقتئذ عاصمة الخلافة وهى على بعد ثلاثة أيام شمال بغداد أنشئت فى موقع مدينة كان الخليفة العباسى هارون الرشيد شرع فى بنائها ثم تركها ولما كانت سنة ٢٢١ هـ (٨٣٥ م) بناها الخليفة المعتصم بالله وسماها سرّمن رأى وحرفها الناس وصاروا يسمونها سامرا ويقال إن هذا الاسم كان يطلق على هذا الموقع من قبل بزمن طويل .

(٢) هذه الفقرة وردت فى كلام ابن دقماق فى وصف جامع عمرو بن العاص بعد زيادة عبد الله ابن طاهر بن الحسين فيه .

(ص ٩٠) : إن الجامع الأعظم بسوسة ببـــلاد تونس منعزل مثل جامع ابن طولون بأروقة جانبية .

وذهب پاسكال كوست الى أن الغرض من إحاطة المسجد بالأروقة أن يكون بعيدا عن أن تصل اليه الضوضى من الخارج(١). ولم يكن جامع ابن طولون منعزلا بل كان بجواره كثير من المساكن وغيرها . من ذلك ما ذكره ابن عبد الظاهر فى قوله : "وسمعت من يقول إنه عمر ما حوله حتى كان خلفه مســـطبة ذراع فى ذراع أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهما فى بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه والظهر لخبـاز والعصر لشيخ يبيع الحمص والفول" .

ومن ذلك دار كانت أمام واجهة الجامع الشرقية ولهـا على ما جاء فى قول المقريزى وأبى المحـاسن باب من جدار الجامع يسلك منه الى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير بجوار المحراب والمنبر وكان يقال لها دار الإمارة لأن أحمد بن طولون كان ينزل بها اذا راح الى صلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدّد وضوءه ويغير ثيابه .

(١) كان بهذه الزيادات والأروقة على عهد ابن طولون مرافق تابعة للمسجد منها بمؤخره ميضاة وخزانة شراب (خطط المقريزى ثان ص ٢٦٦) .

وقد تنبه سالمون الى أن البـاب المذكور لم يكن مفتوحا على الجامع مباشرة بل كان ينفذ منه من الدار الى رواق أو مقصورة[1] وراء جدار القبـلة شبيه بالرواق الخارجى المحيط بالمسجد من الجهات الثلاث الأخرى وقال إن هذا الباب كان يقابله باب آخر فى جدار الجـامع على مقربة من الركن الجنوبى . وهذا القـول لا اعتراض عليه لأن وجود الرواق فى هذا المكان يتم به التمـاثل حول الجـامع فى نواحيـه الأربع ويمكن تشـبيهه بالطريق الدائر الذى كان يحيط بجـامع عمرو من جميع الجهات (ابن دقماق جزء رابع ص ٦٢) وقد ورد فى المقريزى ما يفهم منه أنه كان هناك فاصل بين دار الإمارة والمسجد لقوله إنهـا كانت بحـذاء الجامع يعنى أمام وجهته الجنوبية الشرقية .

(١) قلعة الكبش ص ٣٠ — لم أقف على المصدر الذى يستند اليه سالمون فى تسمية الرواق الخارجى بالمقصورة والذى أعلمه أنها تتخذ داخل المساجد الجامعة حول موقف الامام وكان يسمى بها الجزء المقدّم من الجامع . وأوّل من بنى المقصورة بلبن كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وكانت فيها كوى ينظر الناس منها الى الإمام ثم عملها عمر بن عبـد العزيز من الساج قال ابن دقماق : ولعل قرّة بن شريك لمـا بنى الجامع بمصر عمل المقصورة وفى سنــة إحدى وستين ومائة أمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الأمصار ثم أعيدت بعــد ذلك . ولمـا تولى موسى مصر من قبل أبى جعفر المنصور أمر ان يخرج المؤذنون الى خارج المقصورة وهو أوّل من أخرجهم وكانوا قبـل ذلك يؤذنون بظاهرها ثم أمر الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بعمل الحجر المقابل للمحراب بالزيادة فى المقصـــورة فى شرقيهـا وغربيهـا حتى اتصلت بالجدارين الشرقى والغربى وفى ســنة ٤٤٢ (١٠٥٠ و ١٠٥١ م) عملت لموقف الإمام فى زمان الصيف مقصورة خشب ومحراب ساج منقوش بعمودين من صندل وتقلع هذه المقصورة فى الشتاء اذا صلى الإمام فى المقصورة الكبيرة (الانتصار لابن دقماق رابع ص ٦٨ و ٦٩) .

ولقد كان مثل هذا الترتيب موجودا فى جامع قرطبة الأعظم وهو من بناء عبد الرحمن الداخل . قال ابن بشكوال : وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المستجدة فى قبلته متصل بالساباط المفضى الى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر الى الجامع لشهود الجمعة (نفح الطيب أوّل ص ٢٥٧ طبع مصر بالمطبعة الأزهرية) .

وبقيت دار الإمارة الى أن قدم الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد من بلاد المغرب الى مصر فكان يستخرج فيها أموال الخراج ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع والعسكر وصار موضعها ساحة تنتهى من الجهة القبلية الى حيث توجد الآن حارة الزيادة التى يفصلها عن الجامع الرواق الجنوبى الغربى الخارجى[1] .

وقد كان بهذه الحارة قبل اليوم بنحو أربعين سنة تجاه سور هذا الرواق دور قديمة جميلة تسر الناظرين بما حوته واجهاتها من المشربيات العديدة المختلفة الرسم المحملة على حرمدانات أوكوابيل وماوردات من خير ما أخرجه الصانع وأبدعه فى صناعة الخرط والتفريغ وذلك بجانب إتقان البناء فى هذه الوجهات

(١) بقيت هذه الساحة الى أن حكرها الدويدارى عند تجديد عمارة الجامع (خطط المقريزى ثان ص ٢٦٩) كما سيجىء .

والعناية بتقسيمها وتوزيع الفتحات فيها وما فى وضع الشبابيك والمصبعات. والأبواب ذات الرسم الجميل زيادة على تنوّع النقوش المتخذة فى حجارتها مما يعز وصفه ويحزن الآن فقده .

والظاهر أن هذه الدور كانت مسكنا لمن يتولون أمور الجامع الطولونى لما كان زاهيا زاهرا وكان يقصدها هواة الفن للتمتع بمنظرها ورسمها وتصويرها باعتبار أنها من النماذج النادرة التى تمثل الحارات القديمة بالقاهرة (لوحة ٤) .

أسوار الجامع وأبوابه — (راجع القطاع الأفقى شكل رقم ٢ واللوحة رقم ٥ ا ، ب) وحول الأروقة الثلاثة الخارجية الموازية لجدران المسجد جدران بل أسوار دونها فى الارتفاع عليها شرفات مخرّمة متقاربة كالمغازل اختلف فى وصفها الكتّاب فشبهوها بالعمامة وألسنة اللهب وشنف الديك . وبهذه الأسوار أبواب كل باب منها يقابل بابا من أبواب المسجد . وقد رأى ناصر خسرو السائح الفارسى هذه الأسوار فى سنة ٤٣٩ ه فقال : "إنى لم أر ما يفوقها فى حسنها فى غير آمد وميافارقين" (سفرنامه ص ١٤٥ ترجمة شيفر)[1]. وكانت أبواب المسجد ٣٣ بابا[2] بعضها

(١) الرحلة الكبيرة التى قام بها هذا السائح الشهير استغرقت من سنة ٤٣٧ الى ٤٤٤ (١٠٤٥ — ١٠٥٢ م) .

(٢) كما تدل عليه المعالم الموجودة .

بجدران الأروقة الخارجية أى بالأسوار والبعض الآخر بجـدران المسجد وبيانها :

بجدران الأروقة الثلاثة الخارجية :

٥ بجدران الرواق الخارجى الشمالى الشرقى .

٥ « « « الجنوبى الغربى .

١ « « « الشمالى الغربى (وربما كان عدد الأبواب فى الأصل أكثر من ذلك) .

١ بالجنوب الشرقى فى منتصف نهاية الرواق الشمالى الشرقى وهو المدخل المستعمل الآن ولا يوجد ما يستدل منه على قدمه .

بجدران المسجد :

٦ بالجدار الشمالى الشرقى .

٦ « الجنوبى الغربى .

٤ « الجنوبى الشرقى اثنان يسلك منهما الى خلوتين على يمين وشمال المنبر ويليهما بابان آخران أحدهما مسدود مكانه .

٥ بالجدار الشمالى الغربى .

ولا يبعد أن تكشف أعمال التخلية المنتظر إجراؤها حول المسجد عن بقايا يستدل منها على أبواب أخرى .

ومن الاطلاع على القطاع الأفقى تعرف مواقع الأبواب وما هو المفتوح منها والمسدود ولا يوجد بين هذه الأبواب أبواب كثيرة نخمة مما اتخذ فى المساجد بعد عهد بناية المسجد وانما هى أبواب بسيطة معابرها أفقية [1] (راجع اللوحة رقم ٥ حرف ا) .

الآجر — والجامع مبنى بالآجر المجلل بطبقة سميكة من الجص قال سلادين : والذى دعا ابن طولون لبناء جامعه بالآجر مع وجوده بسفح المقطم هو أن المهندس كان كلدانيا فبنى الجامع بالمواد المألوفة عنده [2] .

وفى الروايات المتواترة عن الجامع نسب الى أحمد ابن طولون أنه لما أراد بناءه قال أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لاصبر لها

(١) يوجد فى النهايه الشرقية من سور الرواق الشمالى الشرقى الخارجى باب من هذا القبيل يرجع الى عهد المستنصر الفاطمى . وقد اجريت عدة استكشافات ظهر منها أن عتبته منخفضة عن أرض المسجد بمقدار ٥ ٩و٢ وعن أرض الرواق الخارجى بنحو متر وكان يتوصل من العتبه الى الرواق بدرج بعرض الباب .

(٢) الفن الإسلامى (ص ٩١) .

على النار فبناه هذا البناء ... (ابن دقماق رابع ص ١٢٣ والخطط للقريزى ثان ص ٢٦٦) ويؤخذ من ذلك أن البناء بالآجر فى ذلك الوقت لم يكن شائعا كثيرا ولا ينقض ذلك ما وجد بالفسطاط من بقايا أبنيته المشيدة بالآجر فانها لا ترجع الى ما قبل العصر الطولونى .

والمعروف فى تاريخ العمارة أن المصريين كانوا يستعملون اللبن فى العهد القديم بدليل وجوده بوفرة فى أطلال مصر . ومع ذلك فانه لم يبلغ ما كان عليه عند الأمم الأسيوية من الانتشار بسبب قلة المحاجر التى تستخرج منها الكتل العظيمة عندهم على عكس مصر فان فيها الجرانيت والسماق . وقد وجد فى مصر بعض طرق كانت تعد لنقل المهمات والمواد اللازمة لتشييد بعض الأهرامات مبنية باللبن . وكانت الأهرامات فى الغالب تبنى نواتها من الطوب وتكسى بالحجر .

أما الآجر فان المصريين لم يستعملوه إلا فى أحوال خاصة كما فى مجرى مدينة آبو مثلا وهيكل موت بالكرنك على عكس ما كان فى العراق فان الآجر الجيد الحريق كان يستعمل دواما[1] وكانوا

(١) شوازى «فن البناء عند المصريين» ص ١١ و پلاس «نينوى واشور» أول ص ٢٢٦

يعطونه شكلا مربعا والآجر المصرى القديم مستطيل وأكثره استعمالا ما كان مقاسه ٠٫٢٢ × ٠٫١١ × ٠٫١٤ (ماسبيرو الاركيولوجيا المصرية ص ١٠) .

وفى جامع ابن طولون الآجر أحمر غامق جيد الحريق ويبلغ مقاسه فى الغالب ٠٫١٨ × ٠٫٠٨ × ٠٫٠٤ وهو مبنى مداميك متناوبة اديه وشناوى وأعنى بالأوّل فى اصطلاح البنائين مدماك أحمال ترص بطول الطوبة على امتداد الجدار والثانى مدماك أسهل ترص بعرض الطوبة عموديا على طول الجدار وتبسط عليه المونة ولحام الآجر بعضه مع بعض منتظم ثخين أخذ مقاسه فوجد أن كل خمس طوبات بلحامها تساوى ٣٦ سنتيمترا فى المتوسط من ذلك اللحام الأفقى ثلاثة سنتيمترات والرأسى ١٨ ملليمترا وثخانة الطوبة ٤٤ ملليمترا فى المتوسط والمعروف فى الأبنية البيزنطية أن اللحام يزيد عن ثخانة الطوب .

الأرجل أو الدعائم — (راجع اللوحات رقم ٣ و ٦) لم يقتصر ابن طولون على بناء الجدران والأسوار فقط بالآجر بل بنى بها أرجلا اتخذها بدلا من العمد ليرفع عليها الأقواس أعنى الطارات على عكس ما فى جامع عمرو .

وقد ذكرنا فيما تقدّم السبب الذى انحل لذلك وهو عدم صبر الرخام على النار ولا يخفى أنه سبب واه وقد وفق الأستاذ كوربت بك الى بيان ما يجوز أن يكون هو السبب الحقيقى وهو تعذر الحصول فى ذلك الوقت على الرخام من المبانى المهجورة بسبب نفاد ما كان موجودا فيها فى المدّة السابقة على ابن طولون[1]. غير أن هذا لا ينفى ما تواترت به الرواية عن تورّع ابن طولون عن أن يأتى بها من المعابد والكنائس خصوصا وأن سيرته ثابت فيها أنه كان منذ صغره يألف مجالس رجال التقوى والورع .

أما عن صبر الرخام على النار فقد قال الأستاذ ڤان برشم : إن تسلط النيران على ما بالقاهرة من العمد الرفيعة التى لم تهيأ بإتقان يعرضها حالا للعطب ونحن لا ننكر أن الدعائم اذا كانت ثخينة من الآجر تكون مقاومتها أكبر ولكن نسبة بقاء الجامع سليما حتى الآن الى ذلك فقط لا يؤيده ما نشاهده فى الجوامع الكبيرة بالقاهرة فان جامع الحاكم وجامع بيبرس الأوّل الكائن بميدان الظاهر اتخذت لها الدعائم وقد أصيبا بعطب شديد والأوّل منهما اندثر كله تقريبا . ولما نبحث عن السبب يجب ألا ننظر

(١) قال هرتس باشا : إنهم (أى المسلمين) آثروا الانتفاع بما عثروا عليه فى الآثار اليونانية الرومانية أو النصرانية الموجودة بوادى النيل وذلك لقلة الرخام بمصر .

فى طريقـــة بنائهما فقط بل يتحتم علينا أن نراعى أمورا أخرى كبنائهما على أرض غير ثابتة وعبث الجند بهما .

واذا نظرنا الى الجوامع الكبيرة يتبين أن المهندس الذى بنى الجامع لابن طولون كان موفقا فى فكرته لأن اتخاذ الدعائم من الآجر فى بناء جامعه أفاده ثباتا كما أفاد بناؤه على أرض ثابتة[1] .

وقد أراد الأستاذ ڤان برشم بالأرض الثابتة الصخر المشـــيد عليه الجامع فان معظم الأساس إن لم نقل كله قائم عليه وقد ظهر من الأعمال التى أجريت فى الجهـــة الغربية أن الطبقة الصخرية قريبة جدا من مستوى بلاط الجامع وتبلغ أحيانا مستوى أرض الصحن .

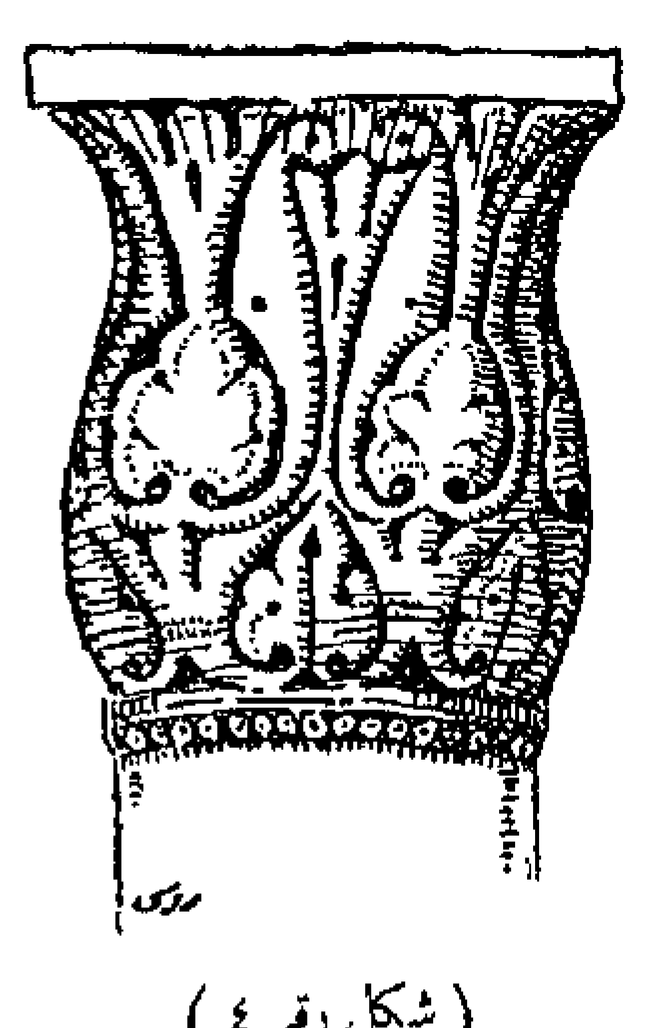
والقوائم منشورية الشكل فى زواياها الأربع عمد لطيفة من الآجر منـــدمجة فيهـــا عملت للتحلية لأن الدعامة كلها هى الحاملة للثقل وقواعد الدعائم من الطراز السابق على العهد الإسلامى . ولهذه القوائم أمثلة كثيرة فى أبنية العصور التالية لعهد ابن طولون .

وقد عثر مسيو دى سرزق ومسيو دومرجان على أمثلة قديمة للعمد المتخذة فى أركان الدعائم المربعة أو المســـتطيلة كالتى

(١) منشورات المعهد العلمى الفرنسى (المجلد الثانى والخمسون ص ٧٣) .

فى جامع ابن طولون فى تللووسوس[1] وهى[2] موجودة بمتحف اللوفر بالقاعة الأشـــورية وقاعة دومرجان (الفن العربى لسلادين ص ٩٢) .

التيجان — (راجع اللاوحة رقم ٦ والشكل رقم ٤) . وعلى العمد تيجان بسيطة مستديرة على أسـلوب التيجان الكورنثية على شكل النواقيس تشاهد فى زخرفتها ورقـة النبات المسمى شـوك اليهود



(شكل رقم ٤)

وهى معروفة فى تاريخ العمارة بأنهـا من لوازم التـاج الكورنثى بل الأصـــل فى زخرفته على ما ذكره ڤيتروڤ فى الكتاب الرابع البـاب الأول، وقـد حكى ما يأتى : أن فتاة من بنات كورنثة

(١) أى التل وهى أطلال فى الجنوب من بابل وجدت بها آثار مدينـة لجش و بينها نماذج كثيرة من عمارة العصر القديم .

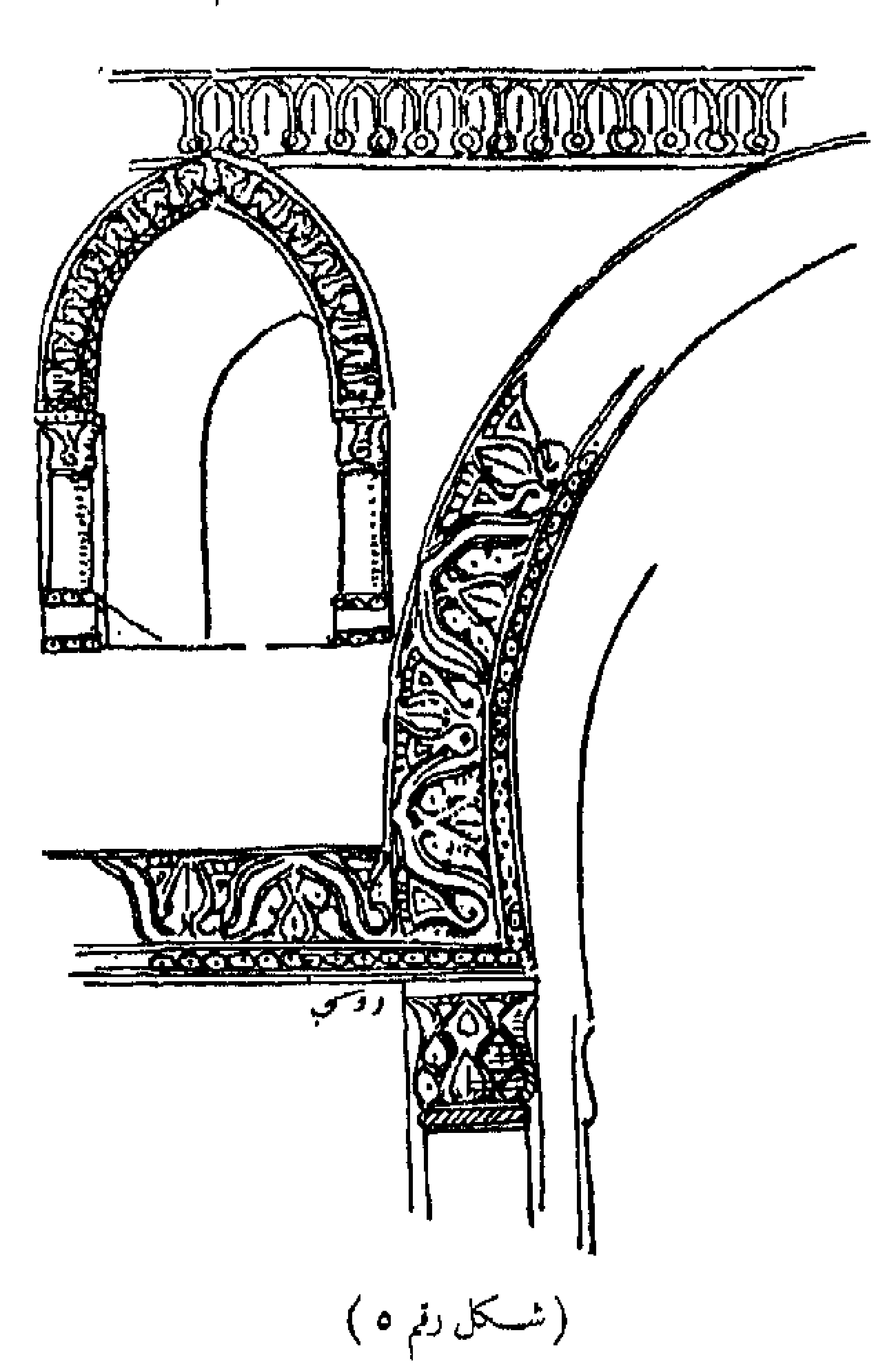
(٢) وهى شوشة مدينة قديمة بآسيا وتعرف الآن باسم شستر .

ماتت ليلة زفافها فجمعت مرضعتها بعض أشياء صغيرة كانت عزيزة عند الفتاة فى سلة ووضعتها على القبر وغطتها بقطعة من الآجر لتحفظها من تقلبات الجوّ وصادف وجود ساق من النبات المسمى شوك اليهود فى هذا المكان ولم يكن ظاهرا فلما جاء فصل الربيع اخضر وامتدّت منه فروع وأوراق أحاطت بالسلة من جميع جهاتها وكانت أطراف الآجرة بارزة فحالت دونها فاستدارت حولها على شكل حلزونى وصادف مرور كاللياخوس النقاش الشهير بجمال مصنوعاته ومهارته فلفتت السلة نظره وأعجبه منظر الأوراق والفروع الملتفة حولها فتكونت عنده فى الحال فكرة التاج الكورنثى فعمل بعض تيجان للعمد على مثالها . ومن ثم وضع قواعد النظام الكورنثى (شابات قاموس العمارة ص ٢٢ أوّل) .

وقد نفى فرنسوا بنوا هذا الخبر واعتبره من الأساطير وقال : إن التاج الكورنثى كان معروفا قبل كاللياخوس وقد اتخذه اكتيوس على أحد العمد بمعبد فيجاليا ومع ذلك فان الشبه بينه وبين بعض التيجان المصرية معروف (العمارة تأليف فرنسوا بنوا ص ٣٦٥ و ٣٦٦) .

الأقواس أو العقود — (راجع اللوحة رقم ٦ والشكل رقم ٥) وفوق الأرجل قناطر أو أقواس كبيرة من الآجر من الطراز الستينى تجاوزت قليلا حد المراكز بكيفية لم تخرجها عن شكل حدوة الفرس . وهى أوّل مثال استعملت فيه هذه العقود بمثل هذه الكثرة .

قال لين پول فى المذكرات الملحقة بكتاب لين الذى عنوانه "المصريون المعاصرون" : إن أوّل مرة عم فيها استعمال العقد



(شكل رقم ٥)

الستينى فى بناية على ما نعلمه الآن هو عند العرب فى مصر وانه صار فيها الميزة التى تعرف بها أحسن عماراتهم . والدليل الناهض على أن هـذه العقود اتخذت لأوّل مرة بكثرة هو وجود هـذا الجامع الذى يرجع إنشاؤه الى سنة ٢٦٣ هـ وكل عقوده ستينية وقد بقى هـذا الجامع وهو أقدم بنـاء عربى بحت على أصله الى اليوم ولم يتغير، وعلى ذلك يكون نموذجا لم يمس على نقيض جامع عمرو .

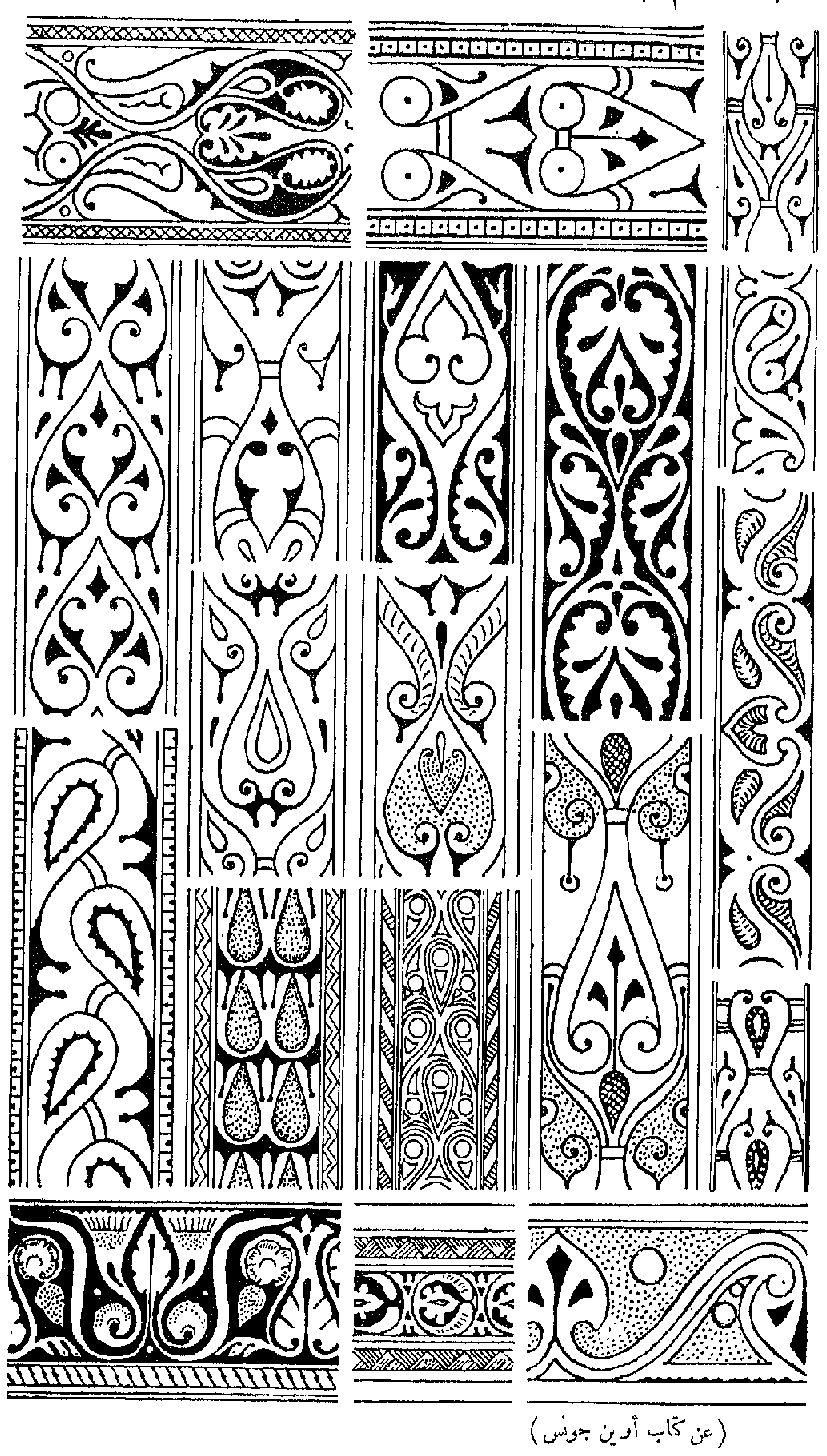
ثم قال وقد أصبح البحث عن أصل العقود الستينية بل وعن العقد نفسه من المسائل الاركيولوجية الممتعة وما يوجد من النماذج الفردية لهذا العقد فى المبانى السابقة للجامع الطولونى لا يؤثر على الواقع وهو أن هذا الجامع أقدم مثال وجدت فيه العقود الستينية بصفة مميز للبناية .

وقد تناول الأستاذ ڤان برشم الكلام على ما اذا كانت هذه العقود من مبتكرات العمارة العربية وهل لها صلة بالهندسة الغوطية فقال : قامت بعض نظريات تنقصها قوّة الحجة عن استعمال العقود المنكسرة بهـذا النظام فى القرن الثـالث الهجرى ذهب واضعوها الى أن هـذه العقود من مبتكرات الهندسة العربية وأن الهندسة

الغوطية شرقية الأصل ولكن التمسك بهاتين النظريتين آخذ فى التحوّل إذ ظهر اليوم أن انكسار العقد من المميزات الثانوية فى العمارة وأن العقود المنكسرة مخالفة منها أمثلة من كل العصور التاريخية فى جميع البلدان المتمدينة ومع التجاوز عما فى المبانى العتيقة فى مصر وأشور فليس من المتعذر وإن قلت الأدلة وجود أمثلة سابقة تدنو كثيرا من العقد الطولونى كما فى طاق كسرى مثلا فان العقود المنكسرة موجودة فيه . ويفوق ذلك فى الأهمية أمر غفل عنه المؤرّخون الذين كتبوا عن جامع ابن طولون وهو وجود العقد المنكسر فى العمارة القبطية البيزنطية ومن ثم يصعب اعتبار عقود الجامع من المبتكرات على أن العمارة الاسلامية نفسها لم تخل من أمثلة سابقة . من ذلك عقود مقياس النيل ومجرى أحمد بن طولون وهى من بناء مهندس الجامع نفسه ومن يعلم بالضبط الوقت الذى بنيت فيه العقود المنكسرة فى المسجد الأقصى وعقود الجامع الكبير الأموى بدمشق .

وفى أسوان مسجدان عتيقان بهما عقود نصف دائرية ولكن يتعذر تعيين تاريخهما ولم يعثر على أمثلة أخرى والعقود النصف الدائرية التى ببوائك الرواق بتربة برقوق وقبابه المتخذة من الآجر

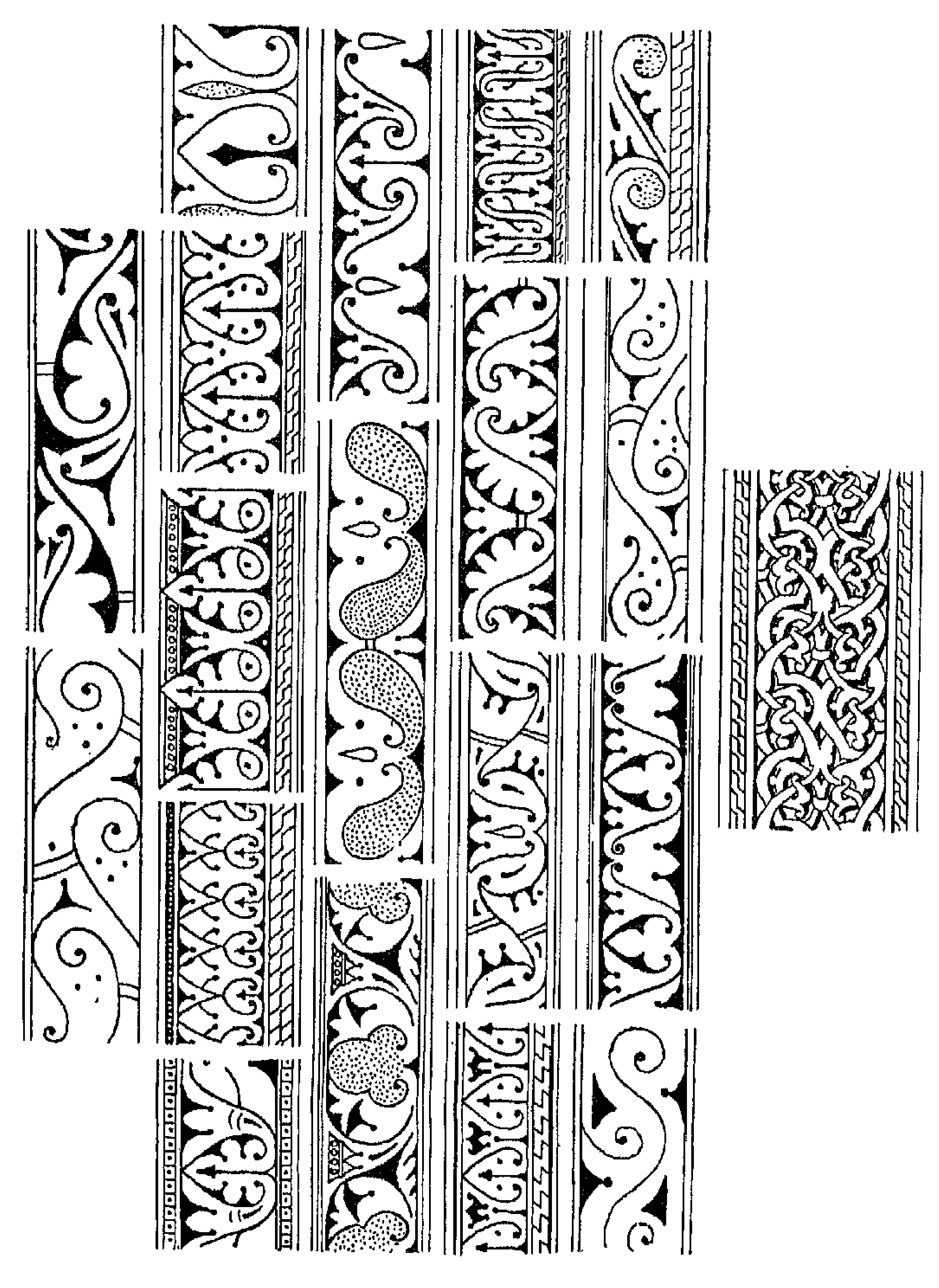
(شــــكل رقم ٦)



(عن كتاب أوين جونس)

نمـاذج من زخارف المسجد

(شـــكل رقم ٧)



(عن كتاب أوين جونس)

نمـاذج من زخارف المسجد

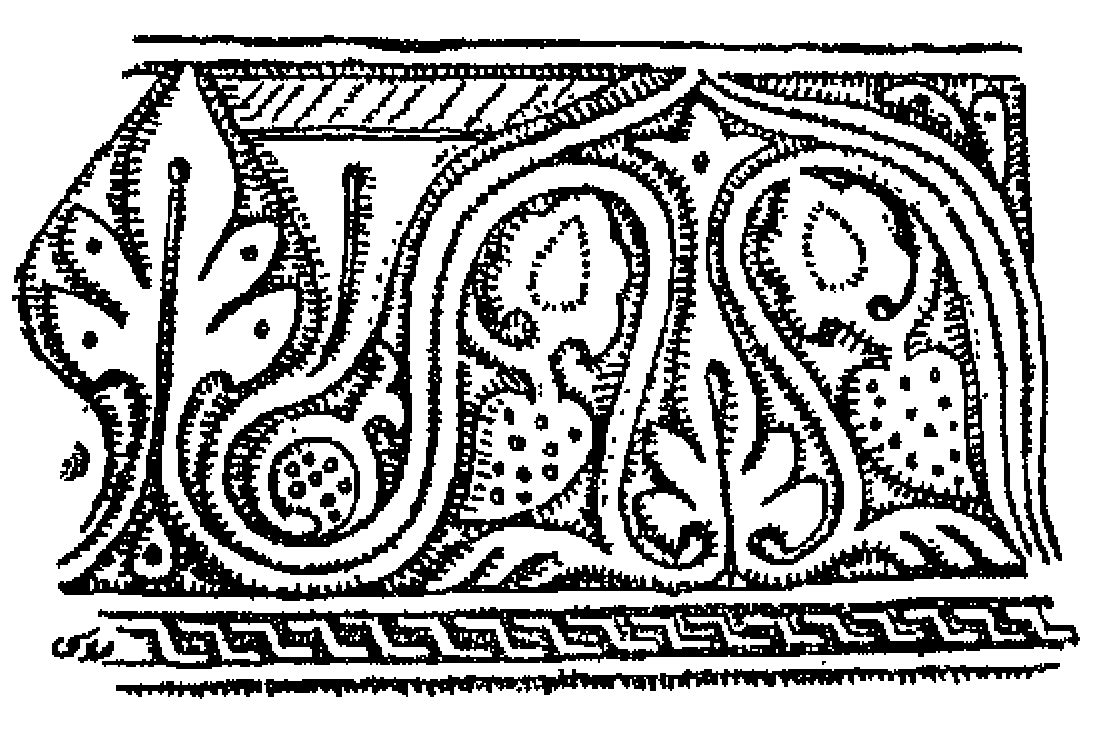
وهى النموذج الوحيد المخالف بالقاهرة من قبل القرن السابع عشر الميلادى عليها منذ ذلك الوقت مسحة أبنية القسطنطينية الرومية التركية وبعد مضى قرن ونصف من ذلك العهد دخل العقد النصف الدائرى مصر مع العثمانيين وبناء على ذلك لايكون هناك ما يجيز القول بأن العقد النصف الدائرى كان متخذا فى الآثار الإسلامية الأولى . أما الصحيح الثابت فهو أن العقد المنكسر كان عام الاستعمال فى القرن الثالث الهجرى (منشورات المعهد العلمى الفرنسى المجلد ٥٢ ص ٧٤)(١) .

ويقع مبدأ هذه العقود فى الجامع الطولونى على ارتفاع ٤,٦٤م من الأرض وقمتها على ارتفاع قدره ٣,٧٠ م من عند المبدأ أما سعتها فإنها ٤,٥٦ م وهى مرتدة ارتدادا خفيفا من الجانبين بشكل ظاهر .

الزخارف — (راجع اللوحة رقم ٦ والأشكال رقم ٦ و ٧ و ٨ و ٩) فى هذا الجامع أكثر الزخارف من الجص منها بواجهات الأقواس طراز مكندج يحيط بفتحاتها عرضه ٤٦ سنتيمترا ويتصل ببعضه عند نهايات الدعائم فوق تيجان العمد المتخذة

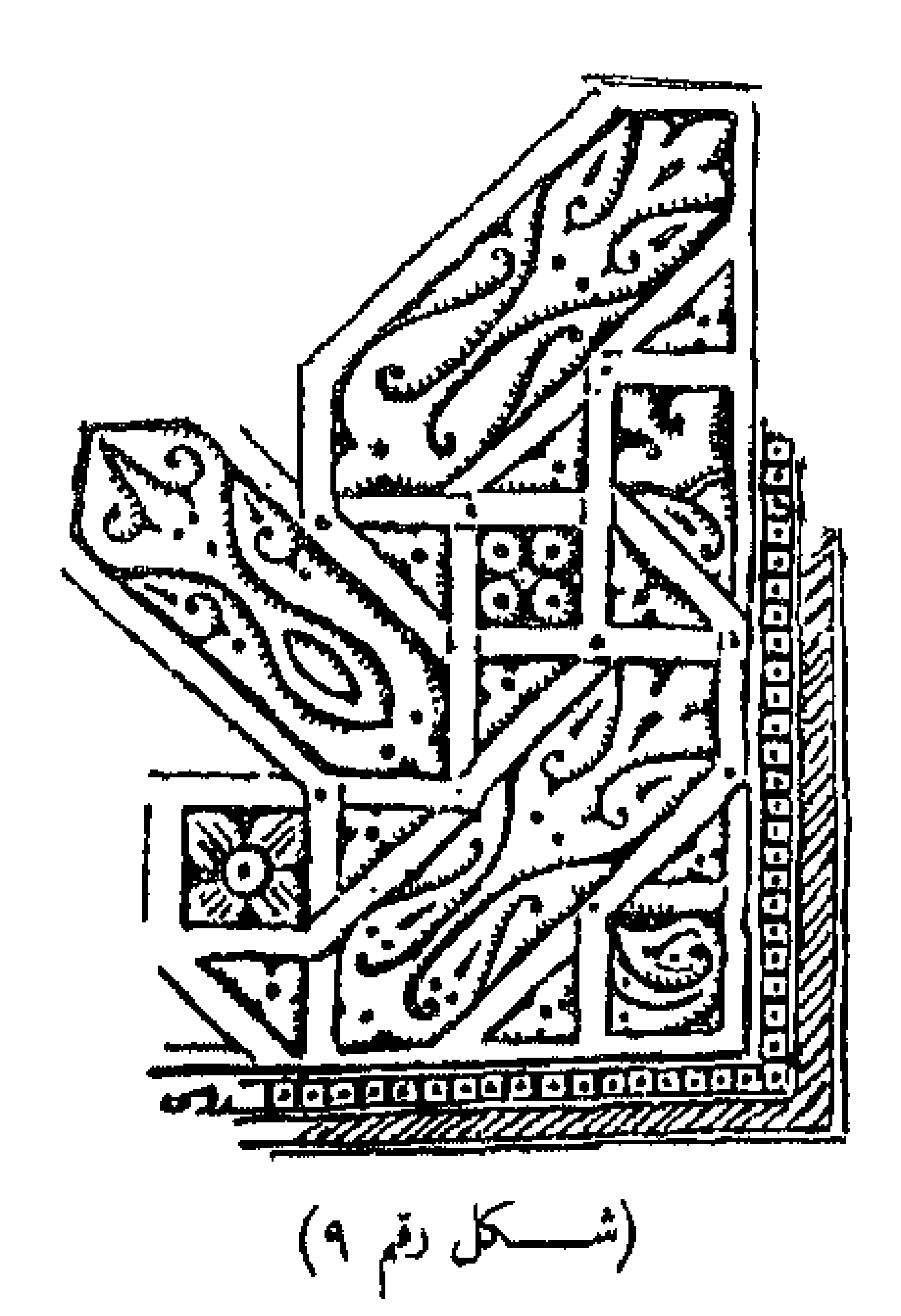
(١) إنى أشكر جناب الأستاذ فييت مدير دار الآثار العربية لأنه تفضل وأعارنى الملزمة المشتملة على مذكرات الأستاذ فان برشم من هذا المجلد قبل أن يتم طبعه للاطلاع على آرائه .

فى أركانها . وكانت بواطن الأقواس فى الأصل مزخرفة أيضا بنقوش جميلة ثم أصابها ما أصاب غيرها من تفاصيل الجامع من



(شـــكل رقم ٨)

التلف فزالت وبقى الشىء القليل منها محجوبا تحت طبقات عديدة من البياض وقد كان قسم منها ظاهرا لما وضع پريس دافن كتابه "الفن العربى" المطبوع بباريس سنة ١٨٧٧ وهو زخرفة باطن أحد الأقواس من حبل الطارات الجنوبى الشرقى



(شـــكل رقم ٩)

بالقرب من المنبر وقد رسمها فى اللوحة الأولى من الكتاب المذكور . وحوالى سنة ١٨٩١ تم كشف قسم من زخارف القوسين الرابع والسادس من حبل طارات الأروقة الجنوبية الغربية من جهة مقدم الجامع . وهذه النقوش تختلف فى الرسم فى كل طارة عن الأخرى .

وتتكون هذه الزخارف من نقوش عربية جميلة أساسها خطوط متشابكة وان لم تبلغ من الرقى ما صارت اليه الزخارف العربية فيما بعد كما فى جامع وقبة قلاون مثلا أو فى جامعى الناصر محمد والسلطان حسن وبالأخص فى منارة جامع الناصر .

وقد قال ستانلى لين پول فى كتابه (تاريخ القاهرة ص ٧٩) عن هذه الزخارف إنها لم تصب فى قوالب كزخارف قصر الحمراء وانما هى من نقش يد ماهرة نتبين فيها الفرق بين عمل الفنى والصانع . وفى الواقع أن ما بالجامع الطولونى منها عليه مسحة من اللطافة لم نجدها فيما بين أيدينا من رسوم الحمراء . وقد وصفها كوربت بك وصفا حسنا .

ويلاحظ أن اتخاذ الزخرفة بهذا المسجد من الجص يخالف المتبع فى بلاد الشام لأن الزخرفة فى دمشق وأورشليم على كثرتها قوامها الرخام الجيد الثمين والمعادن والفسيفساء .

وفوق كل دعامة فيما بين القوسين طاقة صغيرة (شكل رقم ٥) عقدها ستينى من طراز الأقواس الكبيرة ترتفع نهاياتها على مثل نهاية القوسين الكبيرين والغرض من هذه الطاقات تخفيف الثقل عن الأرجل وإيجاد حلية أخرى فى تقاطيع البناء . وعلى العقود الصغيرة طراز عرضه ٤٢ سنتيمترا نقوشه الجصية أقرب الى البداءة من نقوش الطراز الممتد فوق الأرجل وحول الأقواس الكبيرة .

الازار — (راجع اللوحة رقم ٦) وما بين الطراز السابق والسقف إزار من ألواح خشبية بعضها تحت بعض . وفى الوسط من الازار كتابة من الآيات الشريفة تنبئ بأنها من عصر إنشاء الجامع لأنها من الكوفى المربع الساذج الخالى من التشجير والتوريق وقد نقشت حروفها بارزة وليست قطعا منفصلة ومسمرة فى الخشب كما ظنه كوربت بك . ويبلغ ارتفاع كل حرف منها ١٩ سنتيمترا وهى طرفة فريدة فى علم الخط تتمثل فيها الابتكارات العربية الخالصة التى أخذت تترقى فيما بعد الى أن وصلت بالكتابة الى المقام الأول بين مميزات الزخرفة العربية .

ومما يؤسف له ضياع أجزاء من هذا الازار فى مواضع كثيرة [1] .

ولا يغرب عن البال أن الكتابة ركن عظيم من أركان الزخرفة العربيــة بجانب الزخارف المستقيمة الخطوط والزخارف المنحنية ومن المعلوم أن من هذه الأركان الثلاثة تتألف الزخرفة العربية .

والكتابة التى بهـذا الازار نموذج مما كان عليه الخط الكوفى فى طوره الأول وقد سماه الأستاذ ڤان برشم بالخـط المربع أو ذى الزوايا أو الكوفى البسيط وسماه آخرون بالخط الأثرى النقدى لأنه ظهر مرة واحدة على النقود وفى كتابات عبد الملك ابن مروان بالمسجد العمرى بالقـدس الشريف وغيره ثم شاع فى نقود الأمويين والعباسيين وبنى طولون وبنى أميـة بالأندلس وعنـد الفاطميين على عهـد خلفائهم الأول وكانت تتخلله فروق خفيفة وبه كتب كثير من الشواهد فى مصر فى القرن الثـالث وقد شوهد فى كتابات عسقلان سنة ١٥٥ ﻫ (٧٧١ و ٧٧٢ م) وفى مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة (القرن الثالث الهجرى) وفى سوسة والقيروان بتونس (فى سنتى ٢٤٥ و ٢٨٥ ﻫ) وهو

(١) قال الأستاذ ڤان برشم فى تعليقاته فى مجموعة الكتابات المنقوشة فى ذيل صحيفة ٣٨ «القاهرة» أول إن هذا الازار به بعض كلمات تلفت وأتمنى لو تنقل كتابته قبل أن تتلاشى .

موجود أيضا فى كتابات جامع قرطبة وفى طليطلة وفى بلاد القوقاز .

وقد لوحظ فى بعض هذه الكتابات استعدادها للتحوّل الى زخرفة .

قال كوربت بك : والظاهر أن هذا الازار هو الذى روى المقريزى فى شأنه تلك الأسطورة التى تنوقلت بعده وبالغ فيها بعض المؤلفين المتأخرين حتى رووها كأنها من الحقائق . على أن المقريزى مع أنه مؤرّخ عربى قديم كان اذا ما روى الشىء الذى من هذا القبيل قدّره ولم يقطع بصحته وقد نقل هذا الخبر على الوجه الذى يليق به ولم يذكره كأنه مصدّق له فقال : " ورأيت من يقول انه عمل له منطقة دائرة بجميعه من عنبر ولم أر مصنفا ذكره إلا أنه مستفاض من الأفواه والنقلة " أما فى عصرنا فقد زيد فيه حتى صار يؤكد أن القرآن كله كتب حول الجامع بحروف من العنبر .

وقد يكون لكوربت بك مبرر لانتقاد ما جاء عن منطقة العنبر من المبالغة . على أن النص الذى أورده المقريزى يخالف رواية ابن دقماق لأنه يقول إن ابن طولون لما أكمل بناءه أراد

أن يعمل بدائره منطقة عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين ولكن الذى لا نفهمه فى تعليقه هو العلاقة التى أوجدها بين منطقة العنبر والازار لأن هذا الازار بأعلى الجدران تحت السقف ولا يتصوّر أنه وهو على هذا الارتفاع كان يخلق بالعنبر والذى جرت به العادة هو تخليق القبلة وبعض مواضع فى أنحاء المسجد[1] وهو أمر معروف وقد ورد فى المقريزى نفسه عن عمر بن شيبة أنه قال : ان عثمان بن مظعون تفل فى القبلة فأصبح مكتئبا فقالت له امرأته : "مالى أراك مكتئبا" قال : "لا شىء إلا أنى تفلت فى القبلة وأنا أصلى" فَعَمَدَت الى القبلة فغسلتها ثم عملت خلوقا فخلقتها فكانت أوّل من خلق القبلة .

ونفى كوربت بك احتمال كتابة القرآن كله فى الازار وبين ما يمكن أن يسعه منه فقال ان الكتابة ١٩٨٨ مترا وفى كل متر تسعة حروف فتكون حروف الازار ١٧٨٩٢ حرفا ومجموع الحروف التى يحتوى عليها القرآن الشريف ٣٢٣٦٧١ حرفا كما ذكره ثقات المؤلفين فاذا قسمنا هذا المجموع على ١٧٨٩٢

---

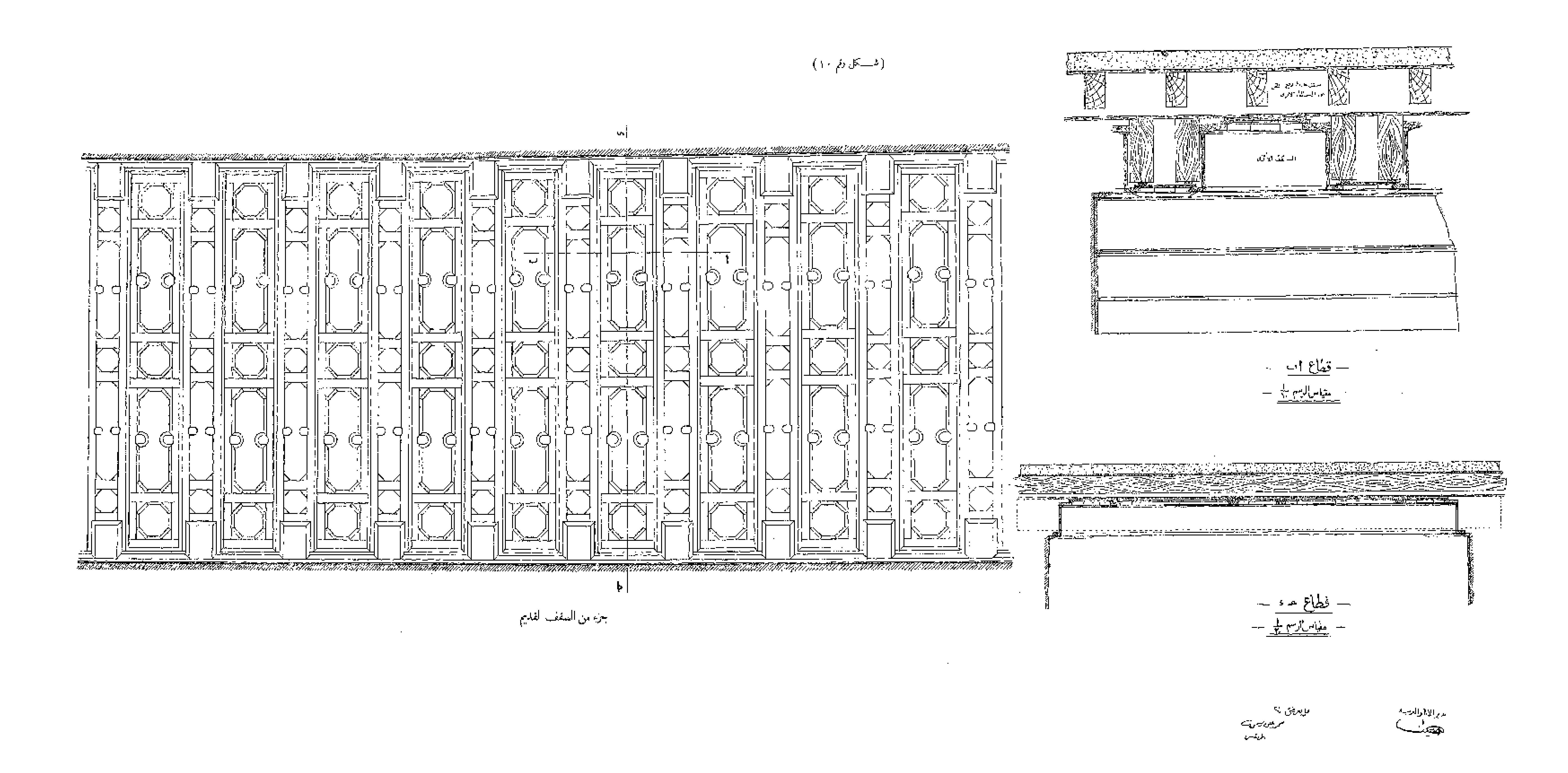
(١) قال ابن عبد ربه فى "العقد الفريد" فى وصف مسجد النبي صلى الله عليه وسلم «وقد أخذ وجه السور القبلى من داخل المسجد بازار رخام من أساسه الى قدر القامة منه وافى على الازار بطوق رخام فى غلظ الأصبع ثم من فوقه ازار دونه فى العرض مخلق بالخلوق » ثالث ص ٣٦٥ طبع بولاق .

كان خارج القسمة ١٧ وعلى ذلك لا يكون فى الازار غير ١/١٧ من القرآن الشريف .

السقف — (لوحة رقم ٢١ حرف ب والقطاع شكل رقم ١٠) قد تلاشى معظم السقف القديم وكان مكونا من جوائز كل منها متخذ من فلقين من جذوع النخل وقد كسيت وجوهها الثلاثة المرئيــة بألواح من الخشب وجعــل فى الفراغ بين كل جائزتين عوارض عمودية عليها فتكوّنت منها سطوح مرتدة عن العوارض .

البوائك أو حبل الطارات — (راجع اللوحة رقم ٣ والشكلين رقم ٣ و ١١) . تختلف زخرفة واجهات البوائك المحيطة بالصحن من جوانبه الأربعة عن داخل الجامع بوجود عصابة مكوّنة من سرر من الجص تقوم مقام الازار الخشبي والطراز الجصى المزينة بهما الجدران والقوائم داخل المسجد وكل سرة موضوعة فى طبق مثمن وأغلبها محزوز حزا غائرا وهى على شكلين متناوبين يختلف أحدهما عن الآخر اختــلافا طفيفا وتحت ذلك سرة كبيرة على يمين وشمال الطاقات الصغيرة أكثرها موضوع فى طبق مســتدير متداخل والبعض بارز ويبلغ عدد ما تخلف منها من السرر الأصلية نحو ثلاثين نوعا والغالب أن كل عقد صغير فى جانبيــه سرتان

(شـــكل رقم ١٠)

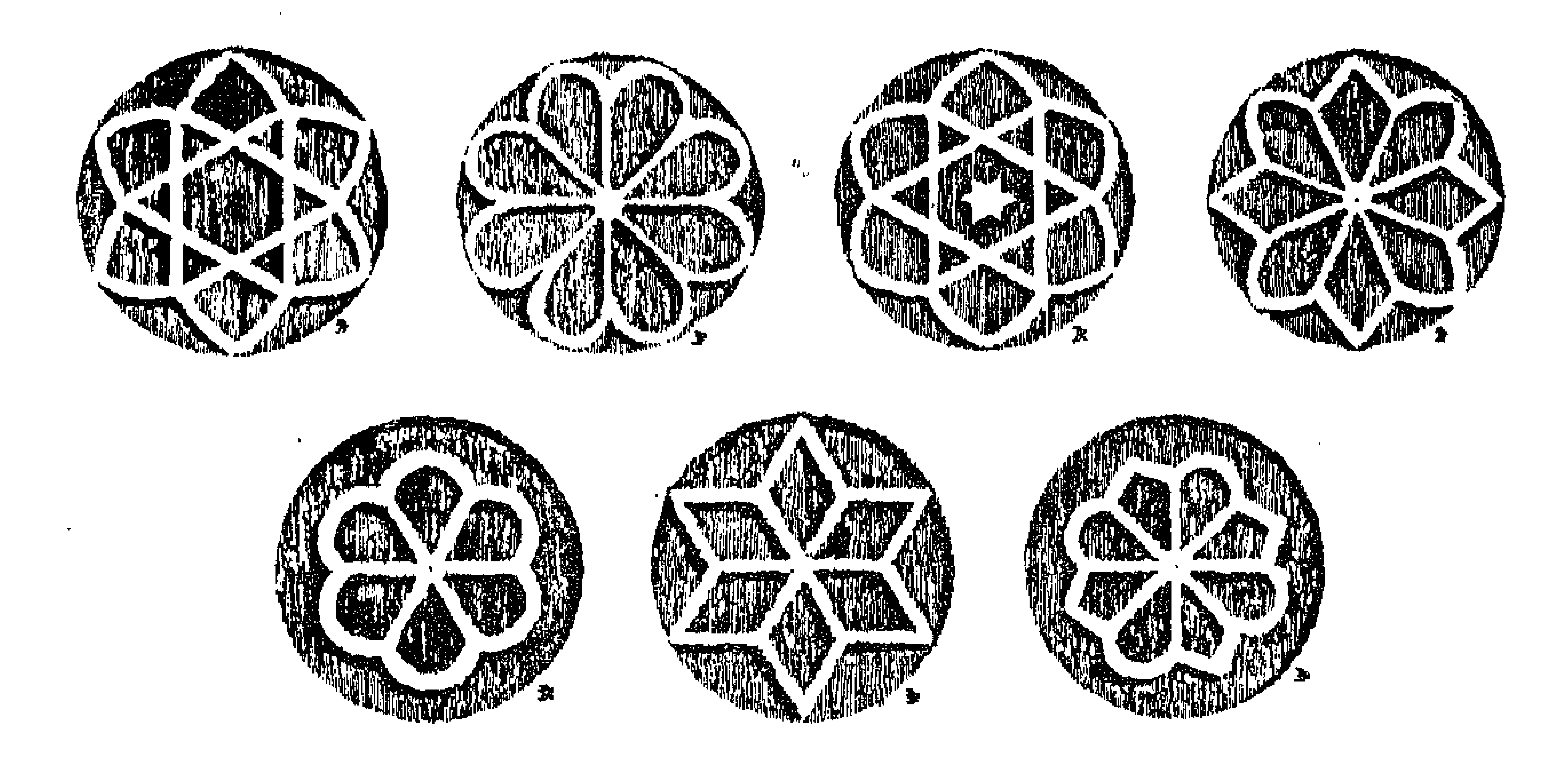


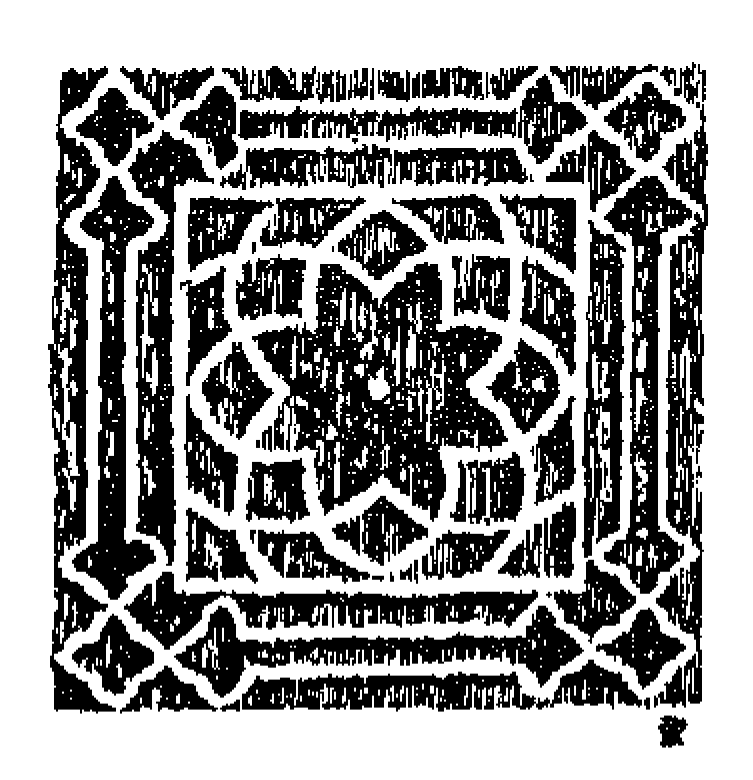
جزء من السقف القديم

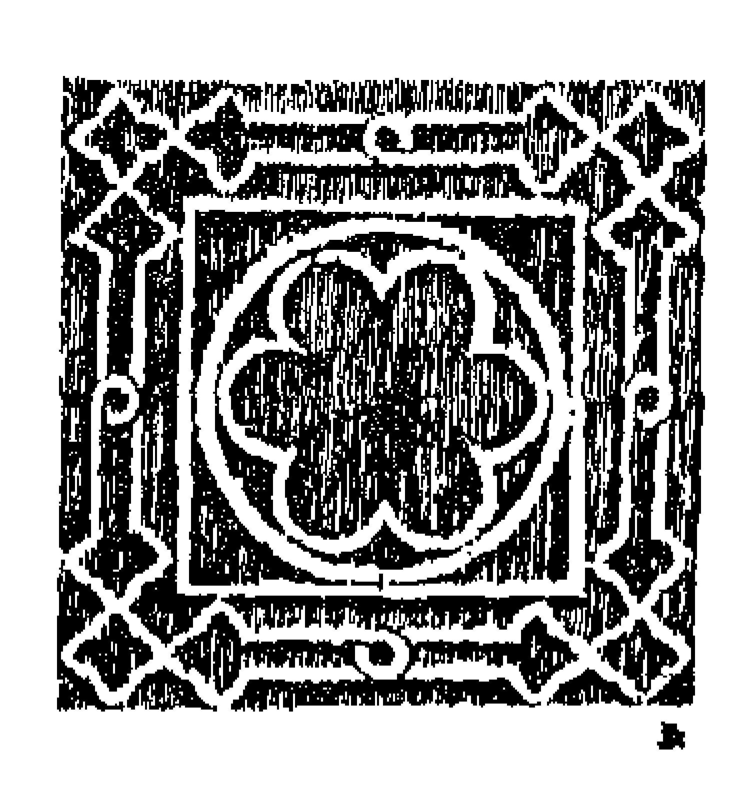
من نوع واحد ولكن التماثل بينهما يفترق وقد انفردت من بين ذلك سرتان داخل مربع فى حبل الطارات الجنوبى الغربى .

وهـذه السرر كلها على وجه التقريب بسيطة وعلى بداءة واذا قيل إنها من عمل لاجين فتكون كما قال كوربت بك منقولة عن أصل تنطبق عليه انطباقا تاما لأن العصور المتأخرة لم يتخلف منها شىء من هـذا القبيل ولاجين الوارد ذكره هنا هو الملك المنصور حسام الدين واذا وافقنا كوربت بك على أن هذه الزخارف قد تكون له فما ذلك إلا لأنه أجرى بالجامع عمارة كبيرة أورد لها المقريزى خبرا فى خططه نذكره فى كلامنا على التجديدات والعمارات . والشىء الوحيد الذى يرسم فى ذهننا أثرا من نظام الصحن فى هـذا الجامع انما هو الصحن الكبير بالجامع الأزهر (سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م) إلا أن العمد هناك تحل محل الأرجل . وكان بدائر الصحن شرفات كالتى على الأسوار لا يزال بعضها موجودا عليه .

وفى سنة ١٩١٨ عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بتنظيف الزخارف (لوحة رقم ٧ و ٨) وفى أثناء ذلك كان من حظ حضرة محمد افندى نافع المهندس المراقب للعمل العثور على قطعة من





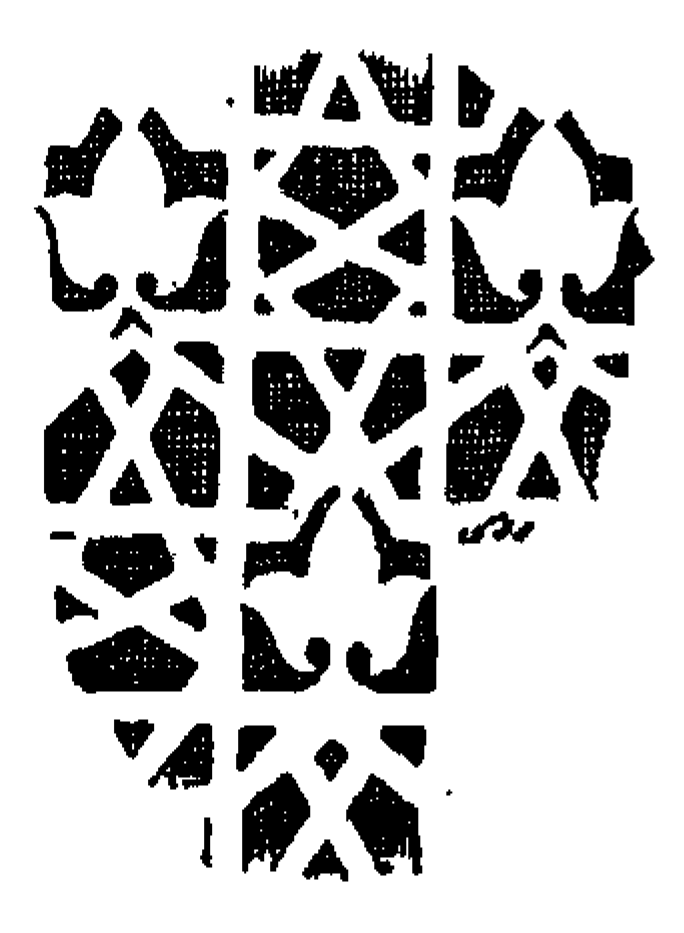


(شكل رقم ١١)

نماذج من السرر الجصية المزخرفة بها وجهات الصحن

الزخارف بوجه إحدى الطارات بالبائكة الجنوبية الغربية من جهة الصحن . ولهذا الاستكشاف قيمة كبيرة لأنه يعين على تجديد ما أمحى من الزخارف بوجهات الطارات الأخرى التى على الصحن[1] .

الطاقات[2] — راجع اللوحتين رقم ٩ (ا و ب) و ١٠ وشكل ١٢ ولما يقع نظرنا على العقود نلمح صفا من الطاقات



(شكل رقم ١٢)

مركب عليها شبابيك من الجص مخرّمة تتكوّن من تخريمها أشكال هندسية بسيطة جميلة تدور حول جدران المسجد الأربعة والسماء من ورائها ترى على بعد كأنما هى من وراء ستر رقيق . وهى على شكل الأقواس الكبيرة معقودة عقدا ستينيا مرفوعا على عمودين

(١) راجع مجموعة اللجنة الفرنسية سنة ١٩١٥ — ١٩ ص ٧٢٧

(٢) وهى المناور التى بالجزء العلوى من الجدران .

قصيرين متخذين فى نفس البناء . ويحيط بعقودها طراز من الجص يعتدل ويأخذ اتجاها أفقيا عند مبادئها ليتصل ببعضه بين العقود كما فى الأقواس الكبيرة وهى منظمة على نسق يجعل كل طاقة ثالثة واقعة على محور عقد .

ومن البدهى أن هذا الوصف لا يسرى على النهايتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من مقدّم الجامع ومؤخره لأن الدعائم تقاطع صدر الجدار كما هو واضح فى الرسم الأفقى والطاقات تقع الواحدة منها بين صفين من الدعائم كما أن الطراز الأفقى هناك تقطعه الدعائم .

ويغلب على الظن أن معظم الشبابيك الجصية المركبة على الطاقات لا ترجع الى ما قبل العمارة الكبيرة التى أجريت فى الجامع فى القرن الثالث عشر .

قال هرتس باشا : ويؤيد ذلك أن زخرفة باطن شبابيك الجامع الطولونى هى عين زخرفة مدفن قلاون .

وقد صادف أثناء كتابتى هذا البحث ان زارنى جناب مستر كريسول فعلمت منه أنه ما زال بين طاقات الجامع ذات الشبابيك الجصية القديمة وهى ثمانون : أربع من طرز خاص قوام

رسمها دوائر متشابكة وهـذا الشكل نفسه يرى فى زخرفة بواطن العقود بجبـل الطارات الغربى ولم يعرف شيء من هـذا القبيل فى الآثار المتأخرة عن عهد الجامع الطولونى وهو لذلك يعتقد أن هـذه الشبابيك الأربعـة ترجع الى زمن ابن طولون . وجميعها بجدار القبلة وهى التى تقع فى العـدّ تحت رقم ٥ و ٦ و ١٥ و ١٦ اذا عددنا الطاقات من الشمال الى اليمين .

وفى اللوحة التاسـعة (ا) رسم احدى الطاقات الأربعـة منقولة عن صورة فتوغرافية من رسم جناب مستر كريسول .

ولما نكون فى الأروقة الخارجية نرى جدران المسجد فيها الطاقات مصفوفة بطول امتداد وجهاتها لا يحيط بعقودها طراز ولا زخرفة (لوحة رقم ٥) .

المحراب الكبير — (لوحة رقم ١١) لم يكن بالجـامع على عهد ابن طولون غير المحراب الكبير الموجود الآن وهو منحرف عن سمت محراب الصحابة .

قال كوربت بك : وقد حققت ذلك على قـدر الإمكان ببوصلة الجيب فوجدت سمت المحراب على ١٤٨° واذا أسقطنا

١٤٣° ½ يبقى لدينا الغربى[1] وهو مقدار الانحراف المغنطيسى ½ ٤°
أو ½ ٨° جنوب الجنوب الشرقى وفى جامع عمرو سمت المحراب
على ١٣٥° وهو بالضبط الجنوب الشرقى مع إسقاط نحو ¼ ٤°
شرق الجنوب الشرقى للانحراف المغنطيسى وهذا الفرق وهو ١٣°
أورده المقريزى فى المجلد الثانى صحيفة ٢٥٦ عند ذكر محاريب
مصر التى يستقبلها المسلمون فى صلواتهم وقد قال إنها أربعة :
أحدها محراب الصحابة رضوان الله عليهم الذى أسسوه فى جامع
عمرو والبلاد التى كثر ممرّهم فيها من إقليم مصر . والمحراب الثانى
محراب مسجد أحمد بن طولون وهو منحرف الى الجنوب عن
سمت محراب الصحابة وقد عقد مجلس بجامع ابن طولون فى ولاية
قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة حضره
علماء الميقات ونظروا فى محرابه فأجمعوا على أنه منحرف عن
خط سمت القبلة الى جهة الجنوب مغربا بقدر أربع عشرة درجة
وكتب بذلك محضر وأثبت على يد ابن جماعة وعلى ذلك تعد هذه
القبلة منحرفة وانها ليست على وضع صحيح . والمحراب الثالث
محراب جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وما فى سمته
من بقية محاريب القبلة . وهى محاريب يشهد الامتحان

(١) يلاحظ أن كوربت بك جرى فى تعيين الاتجاهات على طريقة المقريزى فاعتبر الجهة التى فيها القبلة الجنوب وسمى الجهات الأخرى تبعا لذلك فعلى من يتتبع أقواله هنا عن الانحراف مراعاة ذلك .

بتقدّم واضعيها فى معرفة استخراج القبلة فانها على خط سمت القبلة من غير ميل عنه ولا انحراف البتة . والمحراب الرابع محاريب المساجد التى فى قرى بلاد الساحل فانها تخالف محاريب الصحابة إلا أن محراب جامع منية غمر قريب من سمت محاريب الصحابة .

وقد أفاض المقريزى فى هذا الموضوع ويحسن بالقارئ مراجعة أقواله اذا أحب الاستزادة (راجع الخطط ثان ص ٢٥٦ – ٢٦٤) .

ومما ذكره فى سبب انحراف محراب جامع أحمد بن طولون : ان أحمد بن طولون لما عزم على بناء الجامع بعث الى محراب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ سمته فاذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درجات الى جهة الجنوب فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة الى جهة الجنوب بنحو ذلك اقتداءً منه بمحراب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه وخط له المحراب فلما أصبح وجد النمل قد طاف بالمكان الذى خطه له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وقيل غير ذلك .

روى المقــريزى ذلك ثم قال "وأنت ان صعدت الى سطح جامع ابن طولون رأيت محرابه مائلا عن محراب جامع عمرو ابن العاص الى الجنوب ورأيت محراب المدارس التى حدثت الى جانبه قد انحرفت عن محرابه الى جهــة الشرق وصار محراب جامع عمرو فيما بين محراب ابن طولون والمحاريب الأخرى" .

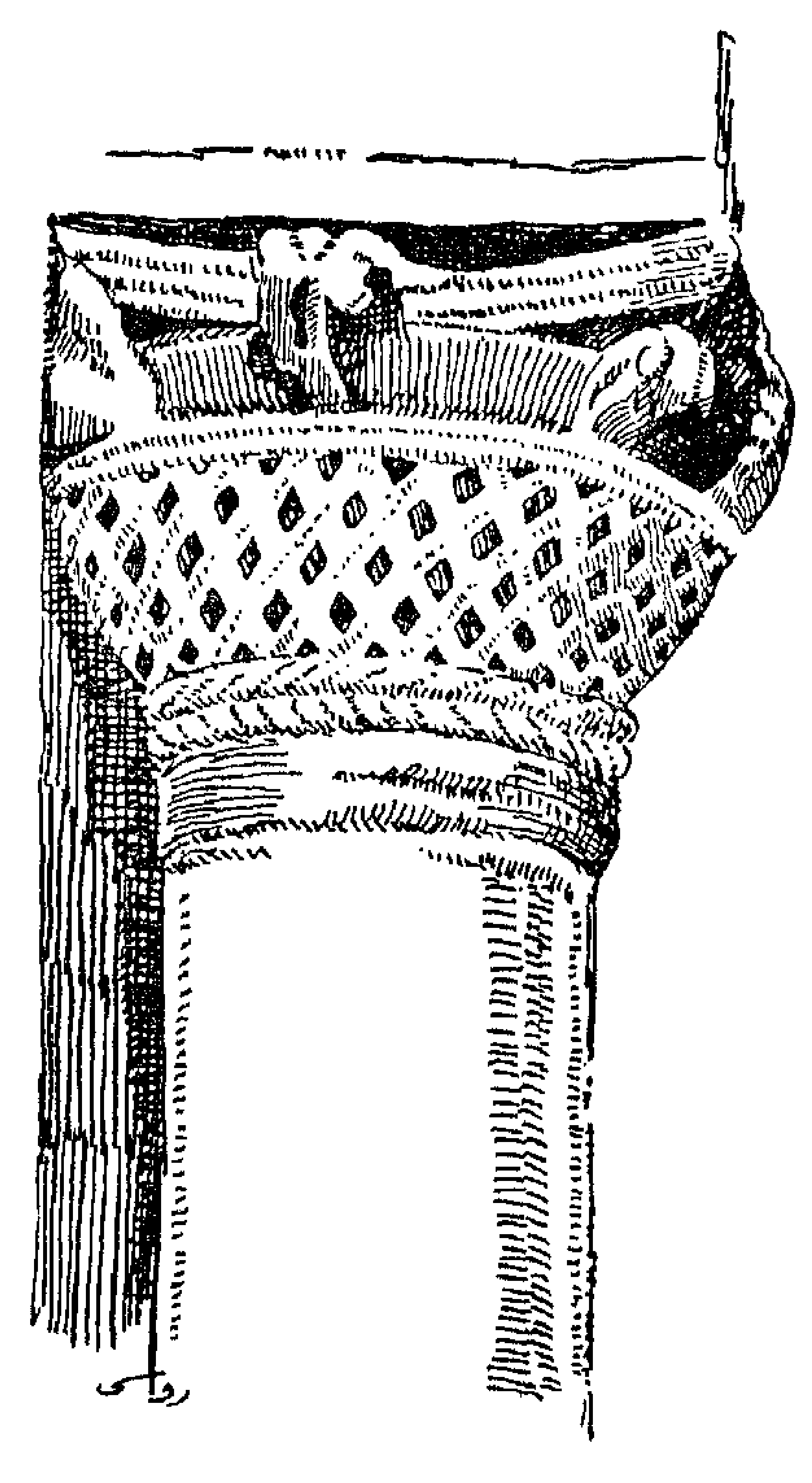
وصف المحـــراب — لا يزال المحراب الطولونى على وضعه الأصلى وتكاد أجزاؤه الأصلية تكون كلها موجودة وهو من الطرز المجوّف نصف دائرى لايختلف عن غيره من محاريب المساجد إلا فى كون تجويفه داخلا فى الجدار أكثر مما فى المحاريب الأخرى ويكتنفه من كل من جانبيه عمودان من الرخام متلاصقان لطيفان (شكل رقم ١٣) مرتد أحدهما عن الآخر قائمان فى زوايا كسيت بالرخام . ويغلب على الظن أن هذه الأعمدة جمعت أجزاؤها من أبنية قديمة ماعدا القواعد فانها قد تكون عملت خصيصا لهذا المحراب . وقد نجح الصانع الذى عهد اليه بتركيبها فى التوفيق بين الأبدان والتيجان والقواعد نجاحا باهرا .

والتيجان الأربعة من الرخام المفرغ كل اثنين منها متشابهان . وهى دقيقة الصنع من الطرز البيزنطى القديم ومن أحسنه صنعا .

منها التاجان الجوانيان من النوع الذى على هيئة السلال وعليهما صحفتان من أجمل المصنوعات فيهما الحوافى منقوشة على مثال

التيجان الكورنثية . وعلى أحد التاجين حلزون صغير أو كعكة وهو من مميزات التيجان اليونانية .

أما التاجان الآخران فإنهما من طرز عتيق منـدثر صحفتاهما منقوشـتان نقشا عميقا ولهما رفرف على شكل العصابة التى تتوج



(شــكل رقم ١٣)

بها الكرانيش القديمة وما عدا ذلك من التفاصيل من البيزنطى الخالص .

وقد تفنن الصانع فى نقش ذلك الى حدّ الإفراط فأتى بالمعجز فى التوريق وتمكن من الحصول على الظل فى عمق كبير .

واذا نظر الإنسان الى التزهير الموجود فى التاجين الأوّلين والى كيفية عمل السلة والتوريق فى التاجين الآخرين تصوّر أن ما يراه من الجص لامن الرخام . وتجويف المحراب مجلل بألواح من الرخام الملوّن الأحمر والأبيض والأسود والأخضر والألواح ليست عريضة ومصفوفة بعضها بجانب البعض تخللها هنا وهناك أشرطة رفيعة من الرخام .

وفوق هذه الكسوة نطاق من الفسيفساء المذهبة البيزنطية التى اشتهرت بها القسطنطينية وبيت المقدّس (الحرم) وهذه الفسيفساء مكوّنة من فصوص من الزجاج[1] على شكل الزهور الملتفة والأوراق ومكتوب فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله

(١) قال صاحب مسالك الأبصار فى كلامه على مسجد دمشق : والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق ومن هذا النوع المسحور وأما الملوّن فعجون . وقد عمل منه فى هذا الزمان شىء كثير برسم الجامع الأموى وحصل منه عدّة صناديق وفسدت فى الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة وعمل منه قبل للجامع التنكزى ما على جهة المحراب . غير أنه لا يجىء تماما مثل المعمول القديم فى صفاء اللون وبهجة المنظر والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد والجديد قطعه مختلفة . وبهذا يعرف الجديد والقديم . (أول ص ١٩٣) .

بمادة سوداء رقيقة كالزجاج ولا شك فى أن هذه الفسيفساء والكسوة المتخذة من الرخام بتجويف المحراب تعديلات أدخلت على المحراب .

قال الأستاذ ڤان برشم : وهذه الفسيفساء نادرة جدا بالقاهرة ولا يعرف منها غير ثلاثة نماذج صغيرة فى المحاريب : بهذه القبلة وفى مدرسة قلاون (٦٨٤ هجرية = ١٢٨٥ ميلادية) وفى مدرسة اقبغا بالأزهر الشريف ٧٣٤ — ٧٤٠ هجرية — (١٣٣٣ و ٣٤ — ١٣٣٩ م) .

وهى فى محراب الجامع الطولونى ترجع الى سنة ٦٩٦ هجرية (١٢٩٦ م) اذا كانت من عمل لاجين .

والظاهر أن صناعة الفسيفساء لم تتخذ فى مصر أبدا ولم تتداول فيها باستمرار . وهو بحث جدير بان يعنى بالبحث فيه . ومما يستغرب له أن تلك النماذج الثلاثة ركبت فى بحر نصف قرن . وقد روعى فى التذهيب والتوريق بهذه الفسيفساء الزخرفة لا النقل عن الطبيعة . وفى مدرسة قلاون (المنصورية) فرع مورّق خارج من آنية من الفسيفساء (منشورات المعهد الفرنسى المجلد ٥٢ ص ٧٦ من قبيل الزخارف المتخذة من الفسيفساء بجامع عمر ببيت المقدس ولكنها أدنى منها منزلة .

وفوق ذلك القبو عليـه كسوة من ألواح رقيقـة من الخشب مكسورة فى عدّة مواضع وعليها زخارف زهرية لم يحكم وضعها .

أما قطاع عقده المكندج المزدوج فقد علق عليـه الأستاذ ڤان برشم بأنه يبتعد قليلا عن قطاع عقود الجامع التى تكلمنا عليها ويقترب فى شىء من الشبه للقطاع الفاطمى .

ومن أهم ما يلفت النظر فى المحـراب الكتابة الكوفيـة المتوج بها لأنها جميـلة للغاية وهى على لوح من الخشب ثخانتـة ثلاثة سنتيمترات جرى الكاتب فى وضعها على الطريقـة التى عمل بها الازار بان قطع ما حول حروفها من اللوح فلم يبق سواها وهى من الكوفى البسيط مكتوب فيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



(شـكل رقم ١٤)

القبة التى فوق المحراب — وبالسقف أعلى المحراب قبة حديثة صغيرة من الخشب محمولة على مقرنصات[(١)] .

المحاريب الصغيرة — وبالدعامتين اللتين فى منتصف حبل الطارات الأول[(٢)] بمقدّم الجامع مما يلى الصحن محرابان غير مجوفين مصنوعان من الجص المزخرف بعض أجزائهما ضائعة .

المحراب الأيمن منهما تحيط به من ثلاث جهات كتابة بالكوفى المشجر تشتمل على اسمى الأفضل والمستنصر . والظاهر أنه من سنة ٤٨٧ هجرية (١٠٩٤ م)[(٣)] راجع اللوحة رقم ١٢ ا والشكل رقم ١٤

(١) قال مستر كريسول : الظاهر أن هذه القبة أو على الأقل كرسيها من عهد لاجين بدليل أن مقرنصاته وهى من الخشب أيضا على هيئة مقرنصات القبة الصغيرة التى بمدرسة وتربة سلار وسنجر الجاولى فى نهاية الطرقة وراء ضريحيهما وقد يكون الجزء العلوى من الكرسى الذى به ثمان طاقات بزجاج «شمسيات» من عصر متأخر عن المقرنصات لأنه قريب الشبه جدا لمبانى قبتى الخانقاه ومدرسة شيخون اللتين يرجعان على ما يظهر الى تجديدات بلال أغا فى سنة ١٠٩٥ هجرية (١٦٨٤ م) (كرونولجى «السلسلة التاريخية» ص ٤٥ باختصار) .

(٢) وهو فى الحقيقة الثانى اذا عددنا البائكة التى زالت ولم يبق منها غير قواعدها المجدّدة .

(٣) هذا المحراب يعرف بالمحراب المستنصرى ومنقوش عليه شكل العقد الفاطمى قائما على عمودين وفوق العقد صورة هلال وهو أقدم نقش من نوعه وعلى جانبيه توشيحتان بهما زخرفة هندسية مما كان يصنع فى القرن الثامن الهجرى خصوصا على الأوانى النحاسية (دليل دار الآثار العربية ص ٢٦٤) وقد نقلت من هذا المحراب ومن محراب لاجين الآتى ذكره بعد صورتان بالجص والصقتا بجدار الغرفة الثالثة عشر بدار الآثار العربية .

وهذا نص كتابته :

(على اليمين) بسملة ... أمر بانشاء هــذا المحراب خليفــة فتى مولانا وسـيدنا الامام (فوق) المسـتنصر بالله أمير المؤمنـين صـلوات الله عليـه وعلى آبائه الطاهرين (على اليسار) وأبنـائه المنتظرين السيد الأجل الأفضل سيف الامام جلال الاسـلام شرف الأنام ناصر الدين "خليل أمير المؤمنين"[1] ... وتحت السطر الأفقى من الكتابة الكوفية سطر صـغير ضيق مكتوب فيه ... ثقــة الامام فخر الأحكا(م) ... لقاسم عبد الحاكم بن وهيب بن عبد الرحمن .

وعبـد الحاكم هـذا من قضاة مصر فى القرن الرابع وقد ذكر فى كتاب " رفع الاصر عن قضاة مصر" .

والمحراب الأيسر يحاكى الأيمن وهو من عمل السلطان لاجين لورود اسمه وألقابه فى كتابته بالنص الآتى :

... هذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين سلطان الإسلام .

وهذه الكتابة بخط كوفى جميل مشجر والمراد بالكوفى المشجر الظاهرة الثانية للكتابة الكوفية البسيطة لما تكاملت عوامل تحولها

(١) هذه الكلمات الثلاث غير موجودة الآن .

إلى زخرفة، وذلك أن ما بدا فيها من الرقى فى الطور السابق أخذ فى الوضوح، وبعد أن كانت الكتابة فى العمارة العربية البيزنطية بمعزل عن باقى الزخرفة صارت ترتبط بسهولة بالزخارف العربية التى تحيط بها كلما تقدّم الطرز العربى فى التحرّر عن التأثيرات اليونانية لتقوم منها زخرفة تستعير رسمها من الزخارف الزهرية فانقسمت رأس الكاف الى ورقة مزدوجة وصارت العين فى بعض الأحيان على هيئة الزهرة التى تنبثق منها الخوصة فى الزخارف وامتدت النهايات من رؤوس الحروف واستدارت على شكل رباط أو على هيئة غصون ملتوية . وسماها البعض فى هذا الطور بالكوفى القرمطى[1] وآخرون بذات الزوايا المزخرفة . أما ڤان برشم فسماها بالخط الكوفى المربع المزهر أو ذى الزوايا المزهر لأنها مشتقة من النوع السابق .

وكان ظهورها واضحا لأوّل مرة على العملة التى أصدرها الخليفة الفاطمى المأمون فى تونس . والظاهر أنها انتقلت فيما بعد بواسطة الفاطميين الى مصر . وكانت رائجة أيضا عند العباسيين والأخيرين من أموى الأندلس وغيرهم من الدول الإسلامية حتى

(١) قرمط رجل من سواد الكوفة نسبت إليه القرامطة وهم أهل مذهب مذموم ظهروا فى سنة ٢٨١ فى خلافة المعتضد بالله وطالت أيامهم وعظمت شوكتهم وأخافوا بالليل واستولوا على بلاد كثيرة وأخبارهم مستقصاة فى التواريخ (ابن خلكان أوّل ص ٦٢٥) .

ظهر الخط المستدير المعروف أيضا بالنسخ فكانت ترى فى جميع النقوش التاريخية عند الفاطميين من منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن السادس وانتقلت الى القوقاز والعجم والعراق وصقلية وأفريقيا الشمالية والأندلس . وأوّل كتابة ظهرت منها كانت كتابة القيروان فى سنة ٣٤١ هـ[١] . ومن الغريب أن الشبه تام بين هذه الكتابة والنقود التى أصدرها المأمون فى تونس . واستمرّت هذه الكتابة مدّة قرنين سائدة على النقوش والعملة وكانت كثيرة التنوّع . ومن أهم أنواعها الزخارف الجصية .

وآخر كتابة تاريخية باقية فى القاهرة بالخط المزهر عهدها سنة ٥٥٥ هجرية[٢] وهى منقوشة بالوجهتين الغربية والبحرية بجامع الصالح طلائع ابن رزيك بجوار باب زويلة . وبعد اثنتى عشرة سنة من هذا التاريخ زالت الدولة الفاطمية . وزالت معها الكتابات التاريخية بالخط المزهر .

ومما تقدّم يتبين أن كتابة محراب لاجين من النماذج النادرة بالنظر لاستعمال الكوفى المشجر من الطرز الفاطمى فى كتابة تاريخية بهذا القلم فى مثل هذا العصر المتأخر[٣] والمظنون أن نقش الكتابة

(١) ٩٥٢ و ٥٣ ميلادية . (٢) ١١٦٠ و ٦١ ميلادية .

(٣) وتوجد كتابة أخرى من هذا القبيل بمدرسة السلطان حسن (مجموعة الكتابات المنقوشة «مصر» أوّل رقم ٥٣٤) .

كان الغرض منـه المطابقة بين هــذا المحراب ومحراب المستنصر ليس إلا . وفى الواقع أن كتابات لاجين الأخرى المنقوشة فى هذا الأثر هى بقلم النسخ المملوكى .

وفى الصف الثالث من حبل الطارات بجانبى سدة المبلغ محرابان آخران من الجص اعتبرهما فلورى من القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى (لوحة رقم ١٢ ب) .

والمحراب الخامس من الجص أيضا وهو فى جدار القبلة على يسار المحراب الكبير اشتهر باسم محراب السـيدة نفيسة وقد زين صدره ودوائر عقده بنقش بعض الآيات الشريفة بالكوفى المشجر أما إطاره فانه منقوش بقلم النسخ القديم .

وقد ظن كوربت بك أنه من عمل لاجين أو محمد الناصر . ويقول ڤان برشم برجوعه الى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

المنارة (لوحة رقم ١٣ حرف ا و ب ولوحة رقم ١٤ حرف ا و ب) — هذه المنارة من أغرب ما يستوقف الأبصار فى الجامع وتعدّ من الألغاز لأنها مبنية على شكل لا نظير له فى المنائر بجميع الأقطار الاسلامية . وهى تتكوّن من ثلاث طبقات واحدة فوق

الأخرى قاعدة مربعة فطبقة أسطوانية تعلوها طبقة مثمنة ويبلغ ارتفاع قمتها عن أرض الجامع ٢٩ مترا وليس وجه الغرابة فيها يرجع الى تربيعها فان كثيرا من المنائر قواعدها مربعة بل لقصرها وضخامتها أى لانعدام التناسب فيها بين قطاعها الأفقى وطولها ووجود مراقيها من الخارج على شكل مدرّج حلزونى وهى قائمة فى الرواق الخارجى الغربى على بعد ٥,٣٦ متر وراء جدار المسجد الخارجى وتسعة أمتار شمالا من محوره، وهذا الوضع لا يجعل بينها وبين مجموع بناء الجامع علاقة . وفيما بين الجزء البحرى من بنائها وبين جدار المسجد عقدان كبيران على شكل حدوة الفرس تبلغ فتحتهما ٤,٠٤ م وينتهيان من الجهة البحرية على استقامة الجانب البحرى من بناء المنارة بالذات وهما مبنيان من جهة جدار المسجد بكيفية تدل دلالة ظاهرة على أنهما خارجان عن نظام البناء الأصلى لأنهما عند اتصالهما به يصادفان طاقتين من طاقات المسجد يقطعانهما فى وسطيهما . والعقدان يربطهما ببعضهما سقف مستدير من الحجر مرفوع من طرفيه على أربع كتل مستطيلة من الحجر والبناء . وهى متخذة على هيئة أكتاف مسندة الى جدارى المسجد والمنارة وأصلها من أبنية أخرى .

ومع أن العقدين مبنيان على ما يظهر من نفس حجر المنـارة بطريقة واحدة إلا أن حجارة العقدين أحكم وضعا من حجارة المنارة ومع مشابهتهما أيضا من حيث الشكل للعقود المسدودة المتخذة فى أجناب قاعدة المنارة فانهما مجرّدان من الحلية التى تحيط بهذه العقود والعقد الذى على مدخل السلم بأسفل المنارة . وزيادة على ذلك تستند رجل العقد القبلى على جانب سلم المنارة مما يدل على أن الاثنين قد بنيا فى وقتين مختلفين . وهناك علامات أخرى ظاهرة لمن يتأمل فى البناء تدل على أن الجدار الذى يربط العقد الشرقى بالمنارة لم يكن هو وجدار المنـارة فى الأصـل حائطا واحدا .

وقد أدّت هذه الملاحظات التى أبداها كوربت بك وتتبعها الأستاذ ڤان برشم واقتبسناها منهما الى استنتاج أن العقدين ليسا جزءا من التصميم الأصلى للمنارة وأنهما بنيا فى زمن متأخر ليكون بين المنارة وبين المسـجد صلة وقد عنى بذلك عناية كبيرة لحفظ التناسق بين العقدين وبين الجزء الأصلى .

ثم قال كوربت بك : ومن ثم تظهر المنارة التى أمامنا بسبب انعدام الاتصال بينها وبين المسجد واختلاف المواد المبنية بهـا وشكل عقودها — بل بكل جزئية يمكننا ملاحظتها — كأنها تعلن

عن نفسها بأنها غريبة عن بناء المسجد وأنها — وهو الواقع — ليست من عصره .

وبحث كوربت بك فى الروايات التاريخيـة فقرر أنه لم يجد بينها ما يجعـله يشك فى نسبة هذه المنارة الى أحمد بن طولون ، ثم قال : وما ذكره المقريزى وتداوله بعده وزخرفه كتاب هذا العصر قد بدأه بقوله (قيل) وهو لفظ معناه "روى المؤلفون أو بعضهم" ممـا لا يتعين به وقت رواية الخبر ولكن الناقلون له حرفوه ولذلك أنقله كما رواه المقريزى بحروفه وهو : « قيل عن أحمد بن طولون أنه كان لا يعبث بشىء قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومدّه واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته فطلب المعمار على الجامع وقال تبنى المنارة التى للتأذين هكذا فبنيت على تلك الصورة »(1) .

وهـذا الخبر لا أشك فى أنه من الأقاصيص المخترعة غير أنه يدل على أن المنارة كانت منسوبة لابن طولون وأن شكلها الخاص لفت نظر النـاس اليها ولو صـدّقناه وجدناه يحوم حول المنارة بالذات كأن لا علاقة لها بالمسجد لأن مغزى الخبر نفسـه واضح فى أن شكل المنارة لم يفكر فيه إلا بعد بناء الجامع .

(1) الجزء الثانى ص ٢٦٧ وابن دقاق رابع ص ١٢٤

ثم قال : والظاهر ان هذا الخبر وضع ليبين السبب فى اتخاذ المنارة على هذا الشكل وهو ما لا يمكن التسليم به لأن المقريزى روى عن القضاعى خبرا وجيزا دل على الزمن الذى بنيت فيه هذا نصه حرفيا : « وبناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة » لأن المفهوم من ذلك هو أن بناء المنارة كان متقدما على زمن القضاعى (١) . وفى الخبر بيان آخر ستظهر صحته الأيام عن النموذج الذى بنى عليه المسجد والمنارة ولكنه لم يأتنا بجديد لأنا لانزال نجهل الوضع المبنى به جامع سامرا ومنارته على أنى بالرغم عن ميلى الى القول بأن المنارة من عصر متأخر وأعنى عصرا فاطميا أرى أن الأسلم هو ترك الفصل فى هذا الموضوع الآن .

على هذا النحو ختم كوربت بك قوله مترددا فى نسبة المنارة لابن طولون مع أنه يميل الى القول بأنها من عصر فاطمى .

وقد علق ڤان برشم على الشطر الأخير بقوله : إن البقايا الموجودة من المنائر الفاطمية الكبيرة هى التى بجامع الحاكم ولا صلة بينها وبين منارة أحمد بن طولون ومن رأيه أن المنارة لأحمد بن طولون ولكنها لم تكن داخلة فى تصميم المهندس لما بنى الجامع وإنما هى وليدة هواه .

(١) توفى القضاعى فى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ ميلادية) على عهد آخر الخلفاء الفاطميين يعنى بعد بناء الجامع بمائتى سنة .

وألحق كوربت بك قوله بملحوظ قال فيه : وبعد أن كتبت ما تقدم أطلعنى مستر و . م كونواى على صورة برج متخرب من أبراج النار بفيروزاباد فى كتاب (ميديا وبابيلون وفارس تأليف زينائيد وا . رجوزان صحيفة ١٥١ و ١٥٣) فرأيته على شكل منارة ابن طولون واذا رجعنا الى ما قيل من أنها بنيت على هيئة منارة سامرا لا يتعذر القول بأنها مأخوذة من أصل فارسى وأن مؤذن ابن طولون المسلم كان يدعو الى الصلاة فوق برج بانيه مجوسى فتكون المنارة من أصل شرقى ولا علاقة لها بالمعمار النصرانى الذى أكثروا من ذكره .

وتناول مستر كريسول هذا الموضوع فى كتابه (السلسلة التاريخية عن الآثار العربية) "كرونولوجى" (صحيفة ٤٦ — ٤٨) فجاء بعدة ملاحظات قيمة رأينا ألا نغفلها قال : إن كوربت وفرنز باشا (فى كتابه "القاهرة" — كايرو — ص ١١) وغيرهما ذهبوا الى أن المنارة متأخرة فى العهد عن الجامع . والمؤكد أنها ترجع الى ما قبل سنة ٣٧٥ هجرية (٩٨٥ و ٨٦ م) لأن المقدسى (طبع دوجوج ص ١٩٩) كتب عنها فى تلك السنة فقال : ومنارته من حجر صغيرة درجها من خارج وإنى لا أشك فى أنها من بناء ابن طولون وقد ذكر المقريزى القضاعى — وكان موجودا

فى سنة ٤٥٤ ﻫ (١٠٦٢ م)[1] — بمناسبة قوله إن ابن طولون بنى الجامع على بناء سامرا وكذلك المنارة . وقد قال ابن دقماق الذى توفى فى سنة ١٤٠٦ ميلادية مثل ذلك عن الجامع ولم يذكر المنارة (ج ٤ ص ١٢٣)[2] . ولا شك أن المقريزى يريد منارة سامرا وهى المنارة التى بناها المتوكل (سنة ٨٤٧ — ٨٦١ ميلادية) وما زالت موجودة وتعرف باسم المنارة الملوية وقد ذكرها كينير فى سنة ١٨١٤ وذكرها أخيرا فرازر وريش والقومندور جونس وڤون تيلمان، ومع ذلك فقد بقيت مجهولة الى ما قبل اليوم بعشر سنوات .

ومما يلفت النظر أن منارة ابن طولون وإن تكن من فوق مستديرة ومن تحت مربعة فالمحقق أنها كانت فى وقت من الأوقات أكثر شبها بمنارة سامرا عما هى عليه الآن (راجع المقريزى ج ٢ ص ٢٦٧ وابن دقماق ج ٤ ص ١٢٤ وأبا المحاسن ج ٢ ص ٨ و ٩) وقد رووا عن أحمد بن طولون حكاية الدرج الأبيض وهذه الحكاية نفسها متداولة عن المنارة الملوية بسامرا على أنه إذا انطبق ما جاء فيها من الوصف على

(١) راجع عن القضاعى وفيات الأعيان لابن خلكان أوّل ص ٥٨٥

(٢) هذا الكتاب نقلته من اللغة الانكليزية الى العربية منذ ثلاث سنوات ولم يطبع .

المنارة الملوية فانه لا ينطبق على منارة ابن طولون كما هى الآن . وهذا يفضى بنا الى السؤال الآتى :

هل أدخلت على المنارة تعديلات ؟ الجواب نعم . لأننا إذا بحثنا نجد أن العقدين الموجودين على شكل حدوة الفرس اللذين يصلان المنارة بالمسجد يرجعان الى زمن متأخر لأن هناك شباكين يقطعانهما فى مرورهما، واذا اعتبرنا — ولنا الحق — أن القاعدة المربعة والعقدين المتصلين بالجامع عهدهما متأخر فما هو العصر الذى يعين لهما ؟

قال ناصر خسرو وقد زار القاهرة فى خلال سنة ١٠٤٧ و ٤٨ إن أولاد ابن طولون باعوا الجامع للحاكم فى أيامه بمبلغ ٣٠٠٠٠ دينار وبعد قليل شرعوا فى هدم المنارة . ولما سئلوا فى ذلك قالوا إنهم لم يبيعوها وعند ذلك ألزمهم الخليفة بأن يستردّوا الجامع (راجع ترجمة شيفر ص ١٤٥ و ١٤٦) . والمحتمل أن تكون المنارة حصل فيها تجديد وقتئذ ولو أن مؤرّخى الجامع سكتوا عن هذا الموضوع وعلى أى حال كانت المنارة بحالة سيئة لما لجأ لاجين اليها .

ثم قال مستر كريسول ومن المناسب أن ننظر فيما اذا كان شكلها الحالى يرجع الى ذلك الوقت وعلق على ذلك بأن هناك

علامتين متباينتين تدلان على ذلك الأولى عقدان على هيئة حدوة الفرس وهما اللذان ذكرناهما فيما تقدّم وعقد من قبيلهما بنهاية السلم (لوحة رقم ١٤ حرف ا) وأربعة أزواج من العقود المسدودة بالوجوه الأربعة من المربع التحتانى من المنارة والأعمدة اللولبية المضاعفة المتخذة كحوامل فى الوسط لثلاثة من العقود المذكورة لأن العقود التى من هذا القبيل ظهرت لأوّل مرة فى مدرسة وتربة قلاون (٦٨٣ و ٨٤ هجرية) فوق المدخل ووجدت عقود منها على منارة هذه المدرسة ومنارة مدرسة تربة سلار وسنجر الجاولى (٧٠٣ هجرية) ثم قال ومن المحتمل جدا أن يكون قسم من التغييرات التى وقعت فى المنارة من ضمن الأعمال التى أجراها لاجين فى سنة ٦٩٦ هجرية . وكذلك النهاية التى على هيئة المبخرة الموجودة الآن تتفق مع هذا التاريخ (راجع السلسلة التاريخية لكريسول ص ٤٦ — ٤٨) .

ولما أزيلت المبانى الملاصقة للمنارة وانكشف جانبها تبين أن الحجارة المكوّنة منها المداميك لم تنحت سطوحها وأن هناك فرقا عظيما بين مبانى الجامع والمنارة .

وللتثبت مما اذا كان بناء المنارة كله خارجا وباطنا من عصر واحد نقب فيه نقب بعرض متر وارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا

فى الجانب الجنوبى من الكتلة المكونة للقاعدة بارتفاع الصفف التى على هيئة طاقات فظهر ما يأتى :

(أولا) ان البناية على امتداد النقب كله من نوع واحد .

(ثانيا) انه لا يوجد فاصل فى أجزاء البناء بين خارج البناء وداخله .

(ثالثا) لم تصادف أية علامة يستدل منها على وجود بناء داخلى أسبق فى العهد من البناء الظاهرى .

وقد تقدّم أن مستر كريسول يرى أن التماثل قائم بين منارتى جامعى ابن طولون وسامرا . ولكن هذا التماثل غير موجود لأن الشكل الظاهرى يختلف فى كل من المنارتين عن الأخرى اختلافا تاما فان منارة سامرا مبنية من أسفلها بناء حلزونيا يدور ست دورات صاعدا بانحدار خفيف يقوم مقام الدرج ومنارة ابن طولون على العكس من ذلك لها قاعدة مربعة وسلم خارجى مدرّج بأربع قلبات وأربعة أجناب ينتهى الى بسطة فسلم حلزونى ينتهى بعد نصف دورة يصعد منه الى بسطة أخرى يستند عليها الجزء العلوى الذى على هيئة مبخرة من الطرز المعروف فى أبنية العصر الأيوبى .

وقد ذهب مستر كريسول أيضا فيما ذكره الى أن المنارة الأخيرة من بناء ابن طولون واستند فى نظريته على رواية المقريزى (جزء ثان ص ٢٦٦) عن القضاعى بأن ابن طولون بنى جامعه على بناء جامع سامرا وأن هذه المنارة على رواية المقدسى من حجر صغيرة درجها من خارج ولكن بعد الايضاحات التى أوردناها لم يبق للشك مجال فى أن البناية الموجودة الآن ليست من القرن الرابع الهجرى ولا الثالث .

ويظهر أن مستر كريسول مقتنع بحقيقة ذلك حتى أنه لم يتردّد فى القول بأن المنارة وقع فيها تبديل (كرونولوجى ص ٤٧) على أنه لم يظهر من الاستكشاف الذى عمل ما يمكن اعتباره تبديلا أو ترميما حقيقيا وأن البناء مشيد فى وقت واحد من أسفل الى أعلى على قاعدة واحدة ولا بأس من أن نسلم بما قاله المؤرّخون من أن المنارة كانت متخربة لما اختفى فيها لاجين فى سنة ٦٩٣ ، ولكن يظهر أن الأقرب الى الاستنتاج هو أنه بعد وقوع هذا الحادث التاريخى كان من المتيسر هدم المنارة وإعادة بنائها عن ترميمها (هذه الملاحظة الأخيرة اقتبسناها من مجموعة لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٥ — ١٩ ص ٢١ و ٢٢ الطبعة الفرنسية) .

قال الأستاذ ڤان برشم : ولم يكن المقرنص الذى على شكل خلايا الموجود بالطبقة العليا من المنارة معروفا على عهد ابن طولون (مجموعة الكتابات العربية المنقوشة القاهرة ص ٧٥ من المجلد الثانى والخمسين من منشورات المعهد العلمى الفرنسى .

وقال أيضا فى موضع آخر : إن الشبه متوفر بين هذه المنارة ومنار الاسكندرية الذى رمه أحمد بن طولون المتواتر ذكره فى المؤلفات التاريخية العربية والذى وصفوه بأنه " ثلاثة أشكال فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل بناؤه بأحجار بيض ثم من بعد ذلك مثمن الشكل مبنى بالحجر والجص وأعلاه مدوّر" (مقريزى ج ١ ص ١٥٧) ، ومنارة ابن طولون بهذا الوضع إلا أن الدور الثانى أسطوانى .

وكان بأعلى المنارة مركب من نحاس تعرف بالعشارى وهى مرسومة فى اللوحة التاسعة والعشرين من أطلس كتاب وصف مصر .

قال المقريزى : "والعامة يقولون إن العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس وليس صحيحا وإنما يدور مع دوران الرياح" .

قال كوربت بك : ولم تنفرد هـذه المنارة بالمركب التى فوقها لأن الأمثلة منها كثيرة بمصر، من ذلك مركب قبة الامام الشافعى وقد رأيت مثلها كثيرا بمساجد عديدة بالأقاليم وفى رشيد[1]، وكانت تملأ بالحبوب ليأكل منها الطير. وقد أورد الجبرتى خبر سقوطها فى حوادث سنة[2] ١١٠٥ هجرية ورآها المقريزى قبله وذكرها مرتين ج ٢ ص ٢٦٦ و ٢٦٧ وكذا ابن دقماق (رابع ص ١٢٣).

الميضأة التى فى وسط الصحن — (لوحة رقم ١٥ حرف ا)

وفى وسط الصحن ميضأة مرفوع عليها قبة كان محلها فى الأصل على ماذكره المقريزى بناء أعلاه قبة مشبك من جميع جوانبه على عشر عمد رخام ويحيط به ستة عشر عمودا من الرخام ويفهم من ذلك أن هـذا البناء كان على شكل مخمس ترتكز كل زاوية من زواياه على عمودين وحول ذلك مثمن محمول على عمـد بالترتيب السابق وتحت القبة قصعة من رخام قطرها أربعـة أذرع (أعنى مترين وثلاثين سنتيمترا) وفى وسطها فوارة. والظاهر أنه بالرغم من اضطراب عبارة المقريزى وغموضها أن سطح المثمن كان

(١) لا يوجد الآن برشيد منائر عليها عشاريات.

(٢) قال الجبرتى فى حوادث السنة المذكورة هبت ريح شديدة فأسقطت المركب التى كانت على هذه المنارة (الجبرتى ج ١ ص ٢٥).

محاطا بدرابزين ساج[1] ويستعمل للأذان وقيل بل كان المستعمل لذلك السلم . وكانت على القبة علامات الزوال .

قال كوربت بك : والظاهر أن هذه الفوارة لم تكن مخصصة للوضوء وانما اتخذت زينة فى الصحن . وقد روى أن ابن طولون لما فرغ من بناء الجامع قال رجل ليست له ميضأة فقال له : أما الميضأة فانى نظرت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وأنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها .

وفى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وثلاثمائة (٩٨٦ م) احترقت الفوارة فلم يبق منها شىء .

وفى المحرّم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة (٩٩٥م) أمر العزيز بالله ابن المعز الخليفة الفاطمى وقيل بل أمه تغريد[2] ببناء فوارة عوضا عن التى احترقت فعمل ذلك على يد راشد الحنفى وتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء . وهى أول عمارة أجريت فى الجامع وحفظ لنا التاريخ ذكرها، وفيما بعد أقيم محل هذه الفوارة البناء الموجود الآن وهو مكوّن من قاعدة على شكل قائم الزوايا ١٢,٨٧م × ١٤,٣٨م.

(١) مقريزى ج ٢ ص ٢٦٨

(٢) ماتت أم العزيز فى سلخ ذى القعدة سنة ٣٨٥

وأطول أضلاعه الجنوبى الشرقى والشمالى الغربى وهذه القاعدة مشيدة بحجر جيد من جبل المقطم فوقه منطقة اتصال مكونة من طبقتين من الحنايا من قبيل ما فى جامع بيبرس الجاشنكير المبنى فى سنة ٦٠٦ هجرية (١٢٠٩ ميلادية)٠وعلى هذه الحنايا سقف مثمن من الخارج وشبه مستدير من الداخل مرفوع عليه قبة قطاعها ستينى وهذه القبة تشغل من البناء مربعا ضلعه ١٢,٨٧ فى القسم الجنوبى الغربى وما زاد بعده من البناء فى الجهة الشمالية الشرقية يحتوى من الداخل على سلم كان يصعد منه الى غرفة صغيرة فى الركن الشمالى الشرقى من السطح .

وفى كل جانب من الجوانب الأربعة من البناء عقد كبير لا ارتداد فيه مبنى بالآجر المجلل بالجص٠والظاهر أن هذه العقود لم يكن تحتها أبواب بل كان البناء مفتوحا فى جوانبه الأربعة . والأرض مفروشة بالرخام وأكثره ألواح طويلة شقت من عمد .

ولا يوجد فى القاهرة قبة أخرى أقيمت لتكون ميضأة . والمشاهد فى كثير من المساجد والمدارس كجامع السلطان حسن مثلا هو وجود ميضأة عليها قبة أو سقيفة بسيطة على عمد من الرخام أو الحجر ذات قطاع مستدير مربع . ولا يخامرنا شك

فى أن هذه الميضأة من تجديدات الملك المنصور لاجين . وتدل على ذلك كتابة منقوشة فى لوح من الخشب بقلم نسخ نصها :

أمر بانشاء هذه القبة المباركة والفسقية والساعات الشريفة مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصورى . فى سنة ست (؟) وتسعين وستمائة (١٢٩٦ ميلادية) .

وهذا اللوح مثبت بأعلى الزاوية الشمالية الشرقية من القاعدة ولهذه الكتابة أهمية تاريخية لأن الميضأة لم يذكرها المقريزى فى كلامه على عمارة لاجين كما أن القبة التى عليها تمتاز من الوجهة الأثرية بكونها على هيئة القباب التى لم تؤلف إلا فى الأضرحة والمراد بالساعات فى هذه اللوحة المزولة التى تتخذ لإخراج ساعات النهار . ولقد عثر الفرنسيون لما احتلوا هذه البلاد على لوح من الرخام منقوش عليه مجموعة من الخطوط تحتوى فى الوسط على أسماء الساعات ومنطقة البروج والاتجاهات مكتوبة بالقلم الكوفى المعروف بالفلكى وفى الطرف سطر بالكوفى الدقيق يقرأ منه :

أمر بعمل هذه الساعات بالجامع المعروف بأحمد بن طولون تغمده الله برحمته فى سنة ٦٩٦

ولا يبعد أن تكون هذه المزولة هى المقصودة بكلمة الساعات فى الكتابة التى على القبة الوسطى وهى مندرجة فى أطلس كتاب وصف مصر ج ٢ لوحة حرف ج[1] .

ومما تقدّم يتبين أن لاجين لم يبن هـذه الميضأة على مثال الفوارة الأصلية[2] والدليل على أنهـا ميضأة الحوض الكبير المثمن وإشارة الآية الشريفة المنقوشة على القبة من الداخل الى الوضوء .

(كوربت بك فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٩١ ص ٥٤٥ ومنشورات المعهد العلمى الفرنسى المجلد ٥٢ ص ٧٦ وخطط المقريزى بتصرف) .

بعض العمارات والتجديدات التى أجريت بالجامع

عمارة بدر الجمالى — ذكرنا فيما تقدّم تجديد العزيز أو أمه تغريد للميضأة ولم يرد فى التاريخ بعـد ذلك ما يستدل منـه على إجراء عمـارات أو تجديدات بالجامع الى أيام المستنصر بالله الخليفـة الفاطمى إذ أجرى به بدر الجمالى عمارة لا زال أثرها مشاهدا على

(١) يدل الرسم على لوح مكوّن من جملة قطع . قال الأستاذ فان برشم فى مجموعة الكتابات «القاهرة» ص ٩٧ : ولا يعرف ما تم فى هذا اللوح لأن مارسيل واضع رسمه المنقول فى الأطلس لم يتمكن من تكميل المذكرة التى وضعها عن الجامع .

(٢) وقد وصف المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه « أحسن التقاسيم » القبة القديمة بأنها « على عمل قبة زمزم فيها سقاية » .

باب كبير مســدود الآن بالبناء فى السور الخارجى على بعـد نحو ثلاثين مترا من الزاوية الشمالية الشرقية حيث يقرأ الانسان ما بين نجاف (عتب) الباب والشرفات كتابة بالكوفى الجميل المزهر منقوشة فى لوح من الرخام مقاسه ٠,٢٦٠ × ٠,٤٥ نصها : بسملة ... (٢) نصر من الله وفتح قريب لعبـد الله ووليه معــدّ أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليــه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين (٣) أمر بتجديد هذا الباب وما يليه عند عدوان النار على ما أبدعه المـارقون فيه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإســلام ناصر الإمام أبو النجم بدر المستنصرى (٤) أدام الله قدرته وأعلى كلمته ابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته وذلك فى صفر سنة سبعين وأربعمائة الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين وسلم تسليما (راجع اللوحة رقم ١٦) .

وتدل هذه الكتابة وإن كانت غير صريحـة على أن الحوادث العظيمة التى جرت على عهد المستنصر فى الشدّة العظمى وقـد أشرنا اليهـا فيما تقـدّم نال منها جامع ابن طولون نصيبه لمـا ثار الأتراك والعبيــد وتجمعوا لمحاربة بعضهم مرارا ظهــر فى آخرها الأتراك وهزموا العبيد الى بلاد الصعيد فاغتر ابن حمدان مقدمهم وعاد الى القاهرة وقد عظم أمره وقوى جأشه واستخف بالخليفة

وخرق ناموسه وطال الفساد الى أن انتهى بالاعتداء على القصر والمكتبة فنهبا نهبا بمرأى ومسمع من الخليفة وزادت المصائب بوقوع الطاعون والجوع فالتهمت القاهرة والفسطاط وصار الخليفة على آخر رمق الى أن فكر فى بدر الجمالى نائبه بالشام فاستدعاه ليعيد الأمن الى نصابه فأبحر اليه فى سنة ٤٦٥ وتم له الفوز وقد أشار المقريزى الى ما تركته هذه الحوادث من الأثر فقال : وبسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلى القرافة حيث الكيمان الآن الى بركة الحبش .

والظاهر أن بعض الثائرين وقد سماهم المقريزى بالمارقين توصلوا الى الجامع وتحصنوا فيه فحوصروا وأحرق بسبب ذلك جزء منه جدّده بدر الجمالى سنة ٤٧٠ ولما تم ذلك أشار الى هذه الحوادث فى الكتابة التى وضعها تذكارا لعمارته .

عمارة الحافظ الفاطمى — وفى سنة ٥٢٦ ﻫ (١١٣٢ م) أحدث القاضى سراج الدين باسم الخليفة الحافظ بعض أعمال فى الجامع لم تدل عليها كتب المؤرّخين ولا الكتابة التى كانت فى الجامع واندثرت وهى مندرجة فى كتاب وصف مصر بالكوفى الخفيف المزهر وبها اسم الخليفة الحافظ الفاطمى ونصها حسب قراءة جناب الأستاذ جاستون ڤييت مدير دار الآثار

العربية : (١) بسملة . . . مما أمر بإنشائه عبد الله ووليه مولانا وسيدنا عبد المجيد أبى (٢) الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين (٣) على يد (؟؟) عبده (؟) ومملوكه القاضى المؤيد الأمير سراج الدين علم المجته[د]ين (كلمة) المؤمنين (كلمة) الإمام وعمدة الأحكام (٤) نظام (؟) الملة وجلاله فخر الأمة وكماله (كلمة) الدولة النبوية عماد الخلافة العلوية الحافظية درّا (٥) لمآثر والفضائل ولى أمير المؤمنين أبو الثريا نجم بن جعفر (كلمة) الله (١١ — ١٣ كلمة) وعشرين(؟) شوّال(؟) سنة ست(؟) وعشرين(؟) [وخمسمائة] .

ولقد عانى فى هذه القراءة مشقة . وكان الأستاذ ڤان برشم حاول ذلك فلم يتمكن من قراءة كل الكلمات على صحة فاستدرك ذلك الأستاذ ڤييت (راجع تعليقاته فى منشورات المعهد العلمى الفرنسى المجلد ٥٢ ص ٨٢ وما يليها) .

وكان سراج الدين أبو الثريا بن جعفر قاضى القضاة بالقاهرة من جمادى الثانية سنة ٥٢٦ الى شوّال أو القعدة سنة ٥٢٨ وفى هذا التاريخ قتله حسن ابن الخليفة الحافظ لما تغلب على الأمر وقد ورد ذكره فى كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى .

اتخاذ الجامع مأوى للغرباء — قال الرحالة الشهير أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى عند ذكره هذا المسجد الكبير ان السلطان صلاح الدين يوسف جعله "مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . قال : ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم ان السلطان جعل أحكامهم اليهم ولم يجعل يدا لأحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون فى طوارئ أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله" . وقد عرفت بهم الجهة التى بها الجامع فكانت تسمى « خط المغاربة » . وكانت رحلة ابن جبير الى مصر فى سنة ٥٧٨ هجرية .

اتخاذ الجامع كمخزن أو مخبز للغلال — وفى سنة ٦٦٢ هجرية (١٢٦٣ ميلادية) جعل الجامع على ما يظهر مخزنا أو مخبزا لأن المقريزى يقول : "وأمر السلطان بيبرس البندقدارى" أن يفرق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم مائة إردب بعد ما يعمل خبزا بجامع ابن طولون[1] (ورقة رقم ١٥٦ مجلد ٢ من

(١) ربما كان مراده ملحقات الجامع .

الجزء الأول والثانى من السلوك للمقريزى من النسخة المأخوذة بالفتوغراف ومحفوظة بدار الكتب) .

عمارة حسام الدين لاجين — وقال المقريزى لما قتل الأشرف بناحية تروجة فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة وكان ممن وافق الأمير بيدرا قاتله الأمير حسام الدين لاجين المنصورى والأمير قراسنقر فلما قتل بيدرا فى محاربة مماليك الأشرف فرّ لاجين وقراسنقر من المعركة فاختفى لاجين بالجامع الطولونى وقراسنقر فى داره بالقاهرة وصار لاجين يتردّد بمفرده على الجامع وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه وأعطى الله عهدا إن سلمه من هذه المحنة ومكنه من الأرض أن يجدّد عمارة الجامع ويجعل له ما يقوم به ثم إنه خرج منه فى خفية الى القرافة فأقام بها مدة وراسل قراسنقر فتحيل فى لحاقه به وعملا أعمالا الى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصورى وهو إذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون القائم بأمور الدولة كلها فأحضرهما الى مجلس السلطان بقلعة الجبل بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء ومماليك السلطان فخلع عليهما وسار كل منهما الى داره وهو آمن فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلفه الأمير كتبغا وجلس على تخت الملك وتلقب بالملك العادل

بجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر وجرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا وهو بطريق الشام ففر كتبغا الى دمشق واستولى لاجين على دست المملكة وسار الى مصر وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل وتلقب بالملك المنصور فى المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة فأقام قراسنقر فى نيابة السلطنة بديار مصر وأخرج الناصر محمد بن قلاون من قلعة الجبل الى كرك الشوبك بجعله فى قلعتها وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه وجعله نائب حماة فأقام بها مدة سنين بعد سلطنة مصر والشام وخلع على الأمير علم الدين سنجر الدواداري وأقامه فى نيابة دار العدل وجعل اليه شراء الأوقاف على الجامع الطولونى وصرف اليه كل ما يحتاج اليه فى العمارة وأكد عليه ألا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا وألا يقيم مستحثا للصناع ولا يشترى لعمارته شيئا مما يحتاج اليه من سائر الأصناف إلا بالقيمة التامة وأن يكون ما ينفق على ذلك من ماله وأشهد عليه بوكالته فابتاع منية اندونة من أرض الجيزة وعرفت هذه القرية بأندونة كاتب مصر كان نصرانيا فى زمن أحمد بن طولون وممن نكبه وأخذ منه خمسين ألف دينار واشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون مما كان فى القديم عامرا ثم خرب وحكرها وعمر الجامع وأزال كل ما كان فيه من تخريب

وبلطه وزاد لتحسين المحراب الكبير على ما يظهر التعديلات التى أدخلت عليه على ما بيناه فى وصفه وأنشأ القبة التى فوقه أو الجزء السفلى منها على الأقل .

ومما تخلف من هذه العمارة قطعة من نحاس طولها ١٫٤٠ متر مكتوب عليها بقلم نسخ متوسط :

"أمر بتجديد هذا الجامع مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين" وهى معروضة بدار الآثار العربية .

وبيضه ورتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها ودروسا يلقى فيها تفسير القرآن الكريم ودرسا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم ودرسا للطب وقرر للخطيب معلوما وجعل له إماما راتبا ومؤذنين وفراشين وخدمة وعمل بجواره مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر [1] فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مشتملاته عشرين ألف دينار .

وقد ذهب البعض الى أن ما بقى من سقف المسجد هو من عمل لاجين لقول ابن إياس إن الجامع كان خربا بغير سقف

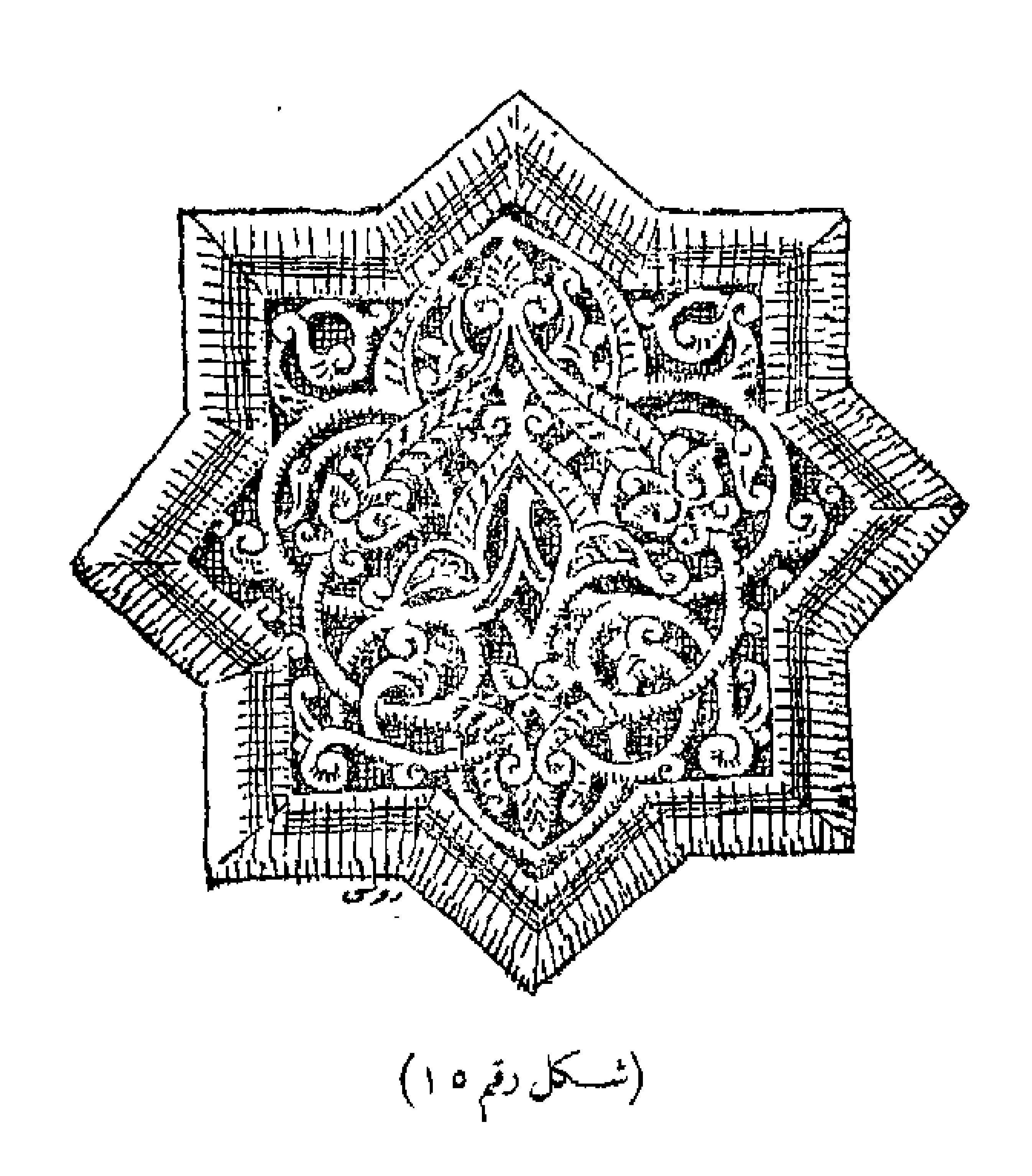
(١) حتى جعل من جملة ذلك وقفا على الديكة تكون فى سطح الجامع فى مكان مخصوص بها لأنها تعين الموقتين وتوقظهم فى السحر فلما قرئ كتاب الوقف على السلطان أعجبه كل ما فيه إلا أمر الديكة فقال : أبطلوا هذا لا تضحكوا الناس علينا فأبطل . (حسن المحاضرة للسيوطى ثان ص ١٥٤ طبع الموسوعات) .

مدة ١٧٠ سنة (ج أوّل ص ١٣٦) . ولكن من يتأمل فى طرز هذه البقايا يميل لنسبتها الى عصر إنشاء المسجد وما عدا ذلك جددته لجنة حفظ الآثار العربية فى أوائل القرن الرابع عشر الهجــرى .

المنبر (اللوحات رقم ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ وشكل رقم ١٥) — ومن إصلاحات لاجين أنه أزال ما كان فى الجامع من تخريب وسقفه وبلطه وعمل له منبرا بعد أن نقل منه منبره القديم .

وكان منبر لاجين لا يزال فى محله كاملا فى سـنة ١٨٤٥ ميلادية لمــا حضر الى القاهرة مستر جيمس ويلد أمين متحف سوان بلوندرة وتمكن من فحصه ورسمه رسما دقيقا . ومن يطلع على هــذا الرسم يرى أن المنبر كان يحتوى فى كل جانب على شكل هندسى دائرى كبير فى وسطه نجمة تحيط به ثمان حشوات كبيرة مثمنة تتبادل بين نجوم وأشكال عربية وعلى السلم وأسفله أنصاف من أربعة أشكال من الرسم نفسه ثم امتدّت اليه الأيدى ونزعت منه حشواته المتخذة من الساج الهنـدى «التك» والعظم والأبنــوس .

وقد اشـترى منها متحف سوث كينسينجتون (المسمى الآن متحف ڤكتوريا وألبرت) ست حشوات مستطيلة من الخشب



(شكل رقم ١٥)

المنقوش، وبمساعدة الرسم الذى وضعه مستر جيمس ويلد تمكن المتحف من تركيب هـذه الحشوات فى مربع كبير ثم فصلت القطع عن بعضها وعرضت منفردة على جدران المتحف تحت رقم ١٠٨٥ ومن بينها حشوتان منقوش عليهما الكتابة الآتيـة وهى بقلم النسخ المملوكى بحروف صغيرة وقد نشرها مسيو لين پول فى كتابه «الفن الإسلامى» (ص ١٣١ وشكل ٤٠) وهى بالنص الآتى كما نقلناه عن ڤان برشم : (١) أمر بعمل هذا المنبر المبارك مولانا السلطان (٢) الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين (٣) المنصورىّ وذلك فى العاشر من صفر من شهور (٤) سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م) أحسن الله عاقبتها .

وعلى باب المنبر كتابة أخرى باسم لاجين فى لوح آخر تشتمل على تاريخ إنشاء المنبر والنص واحد ويؤخذ من هذا التاريخ أن لاجين بمجرّد جلوسه على كرسى السلطنة فى يوم الاثنين ٢٨ المحرم (٢٦ نوفمبر) من تلك السنة شرع فى الوفاء بنذره .

والقطع الأخرى مزخرفة بنقوش مشجرة مورقة من شـــغل ممتلئ عريض (ميجون الفن الإسلامى ص ١٠٤) .

وفى كتاب رونيه المسمى أيام فى القاهرة صورة منقولة عن بعض تفاصيل المنبر (رسم ١ دوزا فى سنة ١٨٣٠ م) .

وفى سنة ١٩٠٥ ميلادية أهدى مسيو جودفروى بروار من فلورنسا لدار الآثار العربيـــة ست قطع من حشوات المنبر وكان قد حضر الى القاهرة سائحا وهو من المولعين بالآثار فرأى عنده هرتس باشا اثنتى عشرة قطعة من هذه الحشوات وكان قد اشتراها ولمـــا عرف منـــه أنها من المنبر أهدى لدار الآثار القطع الست المذكورة والباقى سلمه لهرتس باشا ليصنع مثله .

وفى سنة ١٩٠٨ ميلادية فى مرور هرتس باشا بفيينا رأى فى متحف الفنون والصنائع بعض حشوات من الخشب المنقوش مكتوب عليها مايفهم منه أنها مأخوذة من سقف جامع ابن طولون

فأدرك أنها لا بد أن تكون من المنبر وطلب من المتحف أن يرسل له من الحشوات صورا فتوغرافية بالحجم الطبيعى ليتم منها ما ينقص من أجزاء المنبر الأصلية وقد أجيب الى طلبه فآجتمع عند اللجنة ما يساعد على إرجاع هذا الأثر النفيس الى أصله . وقد تم ذلك وأعيد المنبر الى ما كان عليه .

وعلى عهد السلطان لاجين أوقف شادى بن شيركوه على الجامع شمعدانا من النحاس محفوظا الآن بدار الآثار العربية . وهو يحتوى على أربعة سطور مستديرة منها سطر على البدن وآخران على الرقبة مكتوب فيها ما يأتى :

على البدن :

السطر الأوّل — بقلم نسخ متوسط : مما عمل برسم الجامع المعمور ببقاء سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبى (ابن) عبد الله لاجين الذى تقرب الى الله تعالى بعمارته .

السطر الثانى — بالنسخ الدقيق : المعروف بابن طولون تقبل الله منه ذلك وأحسن اليه فى الدنيا والآخرة وجعله فى صحائف حسناته .

على الرقبـــة :

السطر الثالث — بالقـــلم السابق : تقرب بوقفيته على جامع ابن طولون فى المحراب .

السطر الرابع — بالقلم نفسه : العبد الفقير الى الله تع شادى ابن شيركوه أثابه الله تعالى الكبير .

وتلت عمارة لاجين عمارات جزئية منها أن القاضى كريم الدين الكبير جدّد فى الجامع مئذنتين فى عهد الناصر (مقريزى ج ٢ ص ٢٦٩) وقد ذكرناهما فيما تقدّم .

وفى سنة ٧٠٢ ﻫ (١٣٠٢ م) لمــا نكبت القاهرة بالزلزال وسقط كثير من جوامعها القـــديمة لم يصب الجامع الطولونى بشىء مهـــم على ما يظهر (كاترمير — السلاطين المماليك — ج ٢ (٢) ص ٢١٤ وما بعدها) .

وفي سنة ٧٩٢ ﻫ (١٣٩٠ م) جدّد الحاج عبيد بن محمد ابن عبـد الهادى الهو يدى البازدار مقدم الدولة فى أيام السلطان برقوق الرواق الغربى الملاصق للئذنة الكبرى وجدّد ميضأة بجانب المئذنة القديمة[(١)] التى كانت على ما يظن فى الجناح البحرى الغربى من هذا الرواق حيث توجد الآن ساقية .

(١) وفى حسن المحاضرة « بجانب الميضأة القديمة » ثان ص ١٥٤ طبع الموسوعات .

وقد أغفل المقريزى وابن دقماق المحل الذى كانت به ولم يذكرا عنها إلا أنها كانت فى مؤخر الجامع (ابن دقماق ج ٤ ص ١٢٣ ومقريزى ج ٢ ص ٢٦٩) .

وفى سنة ٩٣٠ هجرية (١٥٢٣ ميلادية) أنشأ شخص يعرف بشرف الدين المدينى على يسار المنارة الكبيرة مصلى وتربة على بابها قطعة من الخشب منقوش فيها كتابة بهذا المعنى .

وعلى عهد محمد بك أبى الذهب أنشئت فى الجامع ورشة لعمل الأحزمة الصوف واستمر الجامع بعد ذلك متروكا حتى كانت سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧ ميلادية) فتحول الجامع الى ملجأ للعجزة والطاعنين فى السنّ على يد كلوت بك ولحق به تلف كبير . وفى ذلك يقول بريس دافن فى سنة ١٨٧٧ ص ٩٥ : " إن وقوع هذا الأثر الجليل العريق فى القدم فريسة للخراب يرجع الى كلوت بك لأنه أراد أن يجعله ملجأ فأقام سدودا من بناء ردىء بين الدعائم وفتح فيها نوافذ فتحولت الأروقة الى مساكن وأصبح من المتعذر رؤية الجامع كله ورسم تفاصيله المهمة .

والانسان لا يكاد يملك نفسه عن انتقاد هذا الاعتداء الفظيع المحجوب تحت ستار الرغبة فى عمل الخير" .

ثم صدرت إرادة سنية بنقل الملجأ الى مارستان بولاق وقد لبث الجامع بعد ذلك مدّة طويلة مهجورا يعرف بالتكية لهذا السبب .

أعمال لجنة حفظ الآثار العربية فى الجامع[1]

سـنة ١٨٨٢ و ١٨٨٣ :

كان الجامع مغلقا يخشى من سقوط سقفه فعاينه قومسيون اللجنة الثانى[2] وقدم تقريرا اقترح فيه إصلاح السقف فوق المنبر حيث الجدار الذى فيه المحراب والتحفظ على الزخارف والمنبر وتقويم أخشابه وتقويتها وهدم المبانى التى أقيمت وسط الأروقة لتحويلها الى مساكن وتنظيف الصحون من الأتربة والأوساخ.

وقد وافقت اللجنة على هذه الأعمال بعد رسم الجامع وشرع فى شراء الأخشاب والحدائد اللازمة للعمارة .

سـنة ١٨٨٥ :

طلب ديوان عموم الأوقاف من اللجنة أن تبدى رأيها فى موضوع ترميم المنبر فطلبت تأجيل ذلك نظرا لأهمية العمل وعدم وجود حشوات من المنبر لتكميله .

سـنة ١٨٨٨ :

اقترح القومسيون الثانى اتخاذ الاجراءات اللازمة نحو التعديات الواقعة من الأهالى على الجامع كفتح شبابيك وإتلاف مناور وإقامة مساكن فى الأروقة الدائرة به .

(١) رأينا أن نكتفى هنا بالتاريخ الافرنجى لأنه هو المتبع الآن فى التوقيعات .

(٢) هذا القومسيون يسمى الآن القسم الفنى ويتكون من بعض أعضاء لجنة حفظ الآثار العربية .

سنة ١٨٩٠ :

أعاد القسم الفنى فحص الجامع فحصا دقيقا وقدّم للجنة تقريرا تفصيليا مصحوبا برسمين عن الأعمال اللازمة لإعادته الى حالته الأولى والتحفظ عليه وقدّرت النفقات بألفى جنيه . وتنحصر هذه الأعمال فيما يأتى :

١ — هدم المبانى المستحدثة وتنظيف الجامع من الأتربة والأنقاض .

٢ — إصلاح القبة التى تعلو رواق المحراب .

٣ — تقوية المبانى الأصلية .

٤ — عمل سقف للجامع مع المحافظة على الأجزاء المخلفة من السقف القديم .

٥ — تقوية الشرفات .

٦ — إصلاح البياض .

٧ — ترميم المنارة الغربية وإصلاح سلمها .

٨ — إصلاح حشو الطاقات المتخذ من الجبس المفرّغ .

٩ — إصلاح المنبر .

عثر على لوحة من كتابة الجامع التاريخية فقرر القومسيون الثانى تثبيتها على إحدى الدعائم بمقدم الجامع .

والذى تم من هذه الأعمال فى تلك السنة هو إزالة الأتربة .

سنة ١٨٩١ :

انتهى إصلاح الشرفات .

وضعت مقايسة لإصلاح السقف والمناور وترميم المنارة الكبرى .

نقل لدار الآثار العربية بعض أجزاء سقطت من إزار السقف مع خشب منقوش وقطعة من المنبر .

سنة ١٨٩٢ :

قررت اللجنة الاستمرار فى الأعمال .

أبلغت اللجنة عن انتهاء عملية تجديد السقف والمناور بمقدم الجامع .

تقرر ترميم الجزء العلوى من المنارة وتركيب هلال عليها وأكملت أعمال التقوية .

سنة ١٨٩٤ :

سقط باب قديم فى الجنب القبلى .

تقرر إنشاء شارع لتخلية الوجهة الشرقية بعرض ١٥ مترا .

بوشر تثبيت بعض الزخارف التى كانت على وشك السقوط .

سنة ١٨٩٦ :

اقترح فرنز باشا تصوير زخارف الجامع للاستعانة بها فى المباحث الخاصة بتاريخ الزخرفة العربية .

سنة ١٨٩٧ :

رأى القسم الفنى تصوير بعض مناظر من الجامع زيادة على الزخارف وعمل مجموعة منها يدرج فيها رسم الجامع .

سنة ١٨٩٨ :

قدم هرتس بك للجنة مشروعا لوضع رسالة عن الجامع تحتوى على ١٥ أو ١٦ صحيفة عدا رسمه العمومى وبعض اللوحات .

سنة ١٩٠٢ :

اقترح فرنز باشا نقل صورة بالجص من محراب المستنصر لابتداء الانحلال فيه . حصل انفجار فى مخازن القلعة تسبب عنه كسر فى المناور الجديدة .

سنة ١٩٠٤ :

اقترح هرتس بك تجديد جزء من أحد جوانب المنبر يستعان فيه بالحشوات التى أهداها مسيو جودفروى لدار الآثار العربية فعهدت اليه اللجنة بوضع تصميم .

ســنة ١٩٠٧ :

لوحظ ميل فى المنارة الصغرى بالزاوية البحرية الشرقية فتقرر ملاحظة حركة الميل فيها من وقت الى آخر .

ســنة ١٩٠٨ :

تقرر وضع سقف صغير من الخشب فوق محراب المستنصر لوقايته من تأثير التقلبات الجوية .

ســنة ١٩٠٩ :

تقرر طلب صور فتوغرافية من متحف الفنون والصنائع بفينا من الحشوات الموجودة به من منبر الجامع بحجمها الأصلى .

ســنة ١٩١٠ :

عرض ديوان عموم الأوقاف على اللجنــة مشروعا لإعداد مساكن لبعض طلبــة الأزهر فى الجامع فلم توافق عليــه لتنافره مع الغاية التى تسعى اليها اللجنة منذ تشكيلها وهو إعادة هذا الأثر العظيم الى حالته الأولى .

ســنة ١٩١١ :

قررت اللجنة ترميم المنبر وتكميله تعديلا للقرار الأول .

وضع مشروع لنزع ملكية المنازل المحيطة بالمسجد .

سنة ١٩١٢ :

تقرر نزع ملكية المنازل الملاصقة للوجهة الشرقية لغاية الشارعين اللذين ينتهيان الى الجامع .

سنة ١٩١٤ :

تم ترميم المنبر ورئى من اللازم تقوية المنارة التى بالزاوية البحرية الشرقية .

عناية حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بهذا الأثر

سنة ١٩١٨ :

توجهت إرادة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر "فؤاد الأوّل" لإعادة إقامة الشعائر الدينية فى الجامع فصلى فيه صلاة الجماعة يوم الجمعة ٢٢ رجب سنة ١٣٣٦ (٣ مايو سنة ١٩١٨) . وبهذه المناسبة أجريت الأعمال الآتية :

هدم منزلان ملاصقان للوجهة القبلية من جامع صرغتمش فظهر هنالك سلم يرجع الى وقت بناء الجامع وكان يصعد منه الى جامع ابن طولون من جهة الصليبة فتقرر عمل خندق بطول تلك الوجهة لتخلية طاقاتها .

عملت تجربة لتنظيف الزخارف كلها .

أعلن زيور باشا رئيس اللجنة أن وزارة الأوقاف مستعدة لتقديم المبالغ اللازمة لاصلاح الجامع .

سنة ١٩١٩ :

وضع برنامج لإصلاح الجامع يشمل تبليط أروقة مؤخره وجانبيه وتجديد البوائك التى اندثرت بمؤخره وإصلاح البياض والطاقات وتمهيد أرض الصحن وغير ذلك .

سنة ١٩٢٠ :

تمت الأعمال الواردة فى البرنامج السابق واتخذت الاجراءات لنزع ملكية المنازل الملاصقة للجدار الشرقى من الخارج .

سنة ١٩٢١ — ١٩٢٥ :

رم سور الرواق الجنوبى الغربى الخارجى من الجهتين وأزيلت الأبنية التى كانت تشغل قسما منه ونظف من الأتربة الى مستوى أرضه الأصلية وتم ترميم وتقوية زخارف باطن الطارات بوجهة الأروقة الجنوبية الغربية داخل المسجد .

شرع فى ترميم السبيل الذى ألحق بالمسجد على عهد لاجين بالطرف الجنوبى الشرقى من الرواق الخارجى المذكور وفى رفع الأتربة المتراكمة محل بخمسة بيوت تم نزع ملكيتها بجوار الوجهة الشرقية لتخليتها

لغاية مستوى الأرض الأصلية وهى أعمال حيوية بالنسبة للمسجد خصوصا إزالة الأبنية والأتربة من الرواق الجنوبى الغربى الخارجى الذى كان بحال تمجها النفس وتزرى بكرامة المساجد وهذه الأعمال جارية على الوجه الأتم تحت إدارة حضرة صاحب العزة أحمد السيد بك مدير الآثار العربية حالا وباشمهندس اللجنة .

توالى عناية حضرة صاحب الجلالة الملك بهذا الجامع

لما رأى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم "فؤاد الأوّل" ملك مصر ازدحام جوانب هذا الأثر الجليل الذى يقول عنه علماء الفرنج بحق كما ذكرنا أنه أعظم آثار مصر الإسلامية أهمية وعلى الأخص بما أقيم فيه من المبانى التى شغلت جزءا من الأروقة المحيطة به أمر حفظه الله بنزع ملكية هذه المبانى حتى تعود الأروقة الى ما كانت عليه ويصبح المسجد خاليا من جهاته الأربع فى وسط ميدان عرضه من كل جهة عشرون مترا غير الميادين التى ستفتح أمام أبوابه العمومية مما يترتب عليه كشف وجهات هذا المسجد ومسجد صرغتمش حتى شارع الخضيرى والصليبة .

وبتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٢٦ صدر مرسوم بنزع ملكية القسم الأول من الأرض اللازمة لهذا المشروع الجليل من الجهة البحرية ثم صدر مرسوم آخر بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٩٢٧ بنزع ملكية الجزء الثانى وقدّرت نفقات ذلك بمبلغ ٤٥٠٠٠ جنيه .

مشروع إصلاح الجامع إصلاحا تاما — فى ٦ مارس سنة ١٩٢٦ كتب حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ لحضرة صاحب المعالى وزير الأوقاف محمد توفيق رفعت باشا خطابا يطلب فيه بمناسبة الأعمال القائمة بها مصلحة التنظيم لتخلية الجامع الطولونى اتخاذ ما يلزم بمعرفة لجنة حفظ الآثار العربية لوضع مقايسة لإجراء الاصلاحات اللازمة للمسجد وإرسالها للنظر فى تدارك النفقات .

ولما اطلعت لجنة حفظ الآثار العربية على هذا الخطاب بحث قسمها الفنى فى موضوع الأعمال الممكن إجراؤها مراعاة لما لهذا الجامع من الأهمية الممتازة من الوجهة الأركيولوجية وأقر البرنامج اللازم المشتمل على ما يأتى :

(أولا) تنكيس حوائط المسجد والأسوار وفتح الأبواب الأصلية المسدودة بالبناء المستحدث .

(ثانيا) اصلاح وتكميل البلاط المفروش فى أرض المسجد .

(ثالثـا) إزالة المبانى المسـتحدثة بجوار المنارة الكبرى لتخليتها وتنكيس التالف من أحجارها .

(رابعـا) تجديد البائكة الناقصـــة بمقـــدم الجامع وطلاؤها بالبياض البسيط "السادة" بدون عمل زخارف فيها تمييزا لها عن البوائك القديمة .

(خامسا) الاكتفاء بتجديد سقف أروقة القبلة من واقع البقايا الموجودة مـــع الاحتفاظ بهـــذه البقايا وتثبيت بقـايا الازار المشتمل على الكتابة وتكميل الأجزاء الناقصة منـه بلا كتابة . والاكتفاء فى دهان الأجزاء المستجدّة من السقف بأن يكون هذا الدهان بسيطا خاليا من الزخارف لتعـذر تعيين ألوان الدهان الأصلى وإبقاء سقف الأروقة التى بجانبي المسجد ومؤخره كما هى بعـــد تقويتها وإصلاحها حتى لا تضربها مياه الأمطار .

(سادسا) إصـلاح البياض والزخارف الجصية على ألا يجدّد من الزخارف الا ماكان له فى البوائك أجزاء قديمـة تساعد على ذلك مع حفظ هذه الأجزاء فى مواقعها تشهد بما كانت عليه . والمواضـع التى لا يكون للقديم فيها أثر لا يتخذ لهـا إلا البياض البسيط . وتكمل الشبابيك المتخذة من الجص حيثما يوجد أثر للقديم .

وقد قدّرت النفقات المنظور صرفها على هـذه الأعمال بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه .

ولما اجتمعت لجنة حفظ الآثار العربيـة فى جلستها السادسة والستين بعد المائتين فى يوم السبت ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٦ برياسة حضرة صاحب المعالى "محمد نجيب الغرابلى باشا" وزير الأوقاف حصلت مداولة فى موضوع هذا المشروع وقد رأيت إثباتها هنا لأهميتها :

" قال حضرة صاحب السعادة محمد زكى الابراشى باشا وكيل وزارة المالية والعضو بلجنة الآثار العربية : « إن هـذا الموضوع على جانب عظيم من الأهمية وإنه سبق للحكومة أن فتحت لتخلية الجامع من المساكن الواقعة فى الجهة البحرية منه وعمل ميدان لكشف المسجد وتسهيل الوصول اليـه اعتمادا قدره ٤٥٠٠٠ جنيه ولو عرضت مسألة الإصلاح وقتئذ عند النظر فى تقرير اعتماد التخلية لساعد ذلك على تقرير المبلغ اللازم للاصلاح فى الوقت نفسه » .

فأجابه حضرة صاحب المعالى رئيس اللجنة بقوله : « إنى عاينت الجامع أوّل من أمس وشاهدت أعمال التخلية التى بدأت فيها مصلحة التنظيم ووقفت على كليات وجزئيات مشروع الإصلاح

ووجهة النظر الفنية التى أقرّها القسم الفنى وهى تدور على إرجاع الأثر الى حالته الأولى على قدر ما تسمح به معالمه الأصلية » .

وشرح معاليــه العوائق الفنية التى حالت دون الموافقــة على جميع الأعمــال التى اشتمل عليها خطاب حضرة صاحب الدولة رئيس الحكومة السابق ثم قال : « واذا كان الغرض من فتح ذلك الاعتماد كشف الأثر وإظهاره فان أوّل خدمة يجب علينا التفكير فيها هو اصلاح هـذا الأثر الجليل بترميم أجزائه المتهدّمة وتقوية مبانيـه وإلا نكون أفسحنا المجال لتقع الأنظار على عيوب الجامع وما به من التشويهات ولذلك لا نوافق أبدا على ترك فكـرة الإصلاح وقد ارتبط المشروع بوعد الحكومة السابقة ومن واجبنا السـعى لتتميم هــذا المشروع والاستمرار على التمسـك به لأنه عرض من جهة الحكومة . ولنا الأمل فى مساعدة الباشا وكيل وزارة المـالية للجنة فى هذا الموضوع » .

فقال حضرة صاحب السعادة الابراشى باشا : « إن الجـامع الطولونى باعتبار أنه أهم الآثار العربيـة بالنظر لقدمه وما انطوت عليه معالمه يجعلنى بصفتى عضوا باللجنة أن أرحب بهذا المشروع الجليل غير أنى أرى للتمكن من النظر فى أمر النفقات اللازمة

أن يكون تقديرها على أساس ثابت من واقع مقايسات تشتمل على تقديرات حقيقية لا تستلزم المطالبة بزيادة الاعتماد فى المستقبل» .

فقال حضرة صاحب المعالى الرئيس : إن التقرير الذى أقره القسم الفنى مبنى على مقايســة إجمالية روعى فيهــا ما يســتلزمه الإصلاح عقب المعاينة التى أجراها وإنه يرى عرض هذه المقايسة على اللجنة فى الاجتماع المقبل واذا رئى عدم الاكتفاء بها توضع مقايسات تفصيلية أخرى » .

والمأمول أن يتم إصلاح الجامع فى هذا العهد الذى هو عهد النهضة المصرية المباركة فتضاف هذه الحسنة الى الحسنات الكبيرة لجلالة الملك المعظم حفظه الله .

ترجمة أحمد بن طولون

مولد أحمد بن طولون[1]

سنة ٢٢٠ هجرية (٨٣٥ ميلادية)

ولد أحمد بن طولون بسامرا من بلاد العراق فى الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين فى وقت بدأت فيه العواصف السياسية تثور وسلطة الخلفاء العباسيين تتدلى بتغلب الأتراك من أتباعهم .

ونشأ أحمد فى حضن والديه حتى العشرين من سنه وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه من صغره فأخذ بحظ عظيم من العلم وحفظ القرآن الكريم وصار من أحفظ الناس له ولازم مجالس المحدثين وترفع عن مجالسة السوقة ومخالطتهم .

---

(١) كان طولون مملوكا تركيا من قبيلة الطغزغز أهداه نوح بن أسد السامانى عامل بخارى الى المأمون الخليفة العباسى فى جملة رقيق حمله اليه فى سنة مائتين ورزق أحمد من جارية اسمها قاسم بسامرا وقيل ببغداد وقيل ان أحمد لم يكن ابنه بل تبناه . وولدت قاسم أيضا موسى وحبشية وسمانة . قال ابن خلكان : وطولون بضم الطاء المهملة وسكون الواو وضم اللام وسكون الواو وبعدها نون وهو اسم تركى .

وفاة طولون وزواج أحمد وخروجه الى طرسوس

ســـنة ٢٤٠ هجرية (٨٥٤) ميلادية

وبعد موت أبيــه[١] كفله رفقاؤه فانصرف لخدمة السلطان وحسن ذكره وعرف بعلو الهمة وحسن الأدب فزوّجه يارجوخ[٢] التركى من أكابر رجال الدولة العباسية ابنتــه وولدت له العباس وفاطمـــة .

وخرج الى طَرَسوس[٣] وفى عودته منها ســـطا الأعراب على قافلته فرمى بنفسه عليهم ووضع السيف فيهم حتى انهزم الأعراب واستنقذ منهم جميع ما أخذوه وكان فيــه بغل محمل بمتاع خاص بالخليفة المستعين فلما اتصل به خبر ذلك عظم أحمد فى عينيــه وتوالت عليه جوائزه حتى حسنت حاله وكان فيما وصله به جارية اسمها مياس استولدها أبا الجيش خمارويه .

---

(١) مات طولون سنة أربعين ومائتين .

(٢) وقد ورد فى رسالة ما رسيل عن الجامع الطولونى باسم « برقوق » .

(٣) طرسوس احدى مدن آسيا الصغرى باقليم كرمانيا و بها قبر المأمون بن هارون الرشيد (راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج أوّل ص ٢٢) .

انتداب أحمد بن طولون لمرافقة المستعين بعد خلعه

سنة ٢٥٢ — ٥٣ هـ (٨٦٦ ميلادية)

ولما بويع المعتز ونفى المستعين الى واسط اختار الأتراك أحمد بن طولون ليكون معه فمضى به الى واسط فأحسن عشرته وشكر حسن بلائه عنده وأطلق له التنزه والصيد وعامله بالإكرام وخاف غلمان المتوكل من المستعين فطلب من أحمد بن طولون قتله فامتنع وكتب الى الأتراك أنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة فأنفذوا سعيدا الحاجب فتسلم المستعين منه بحضور القاضى والشهود وقتله وأخذ رأسه فوارى ابن طولون جثته وعاد الى سامرا[1] وكان يقول : لقد وعدنى الأتراك إن قتلت المستعين أن يولونى واسطا نخفت الله ولم أفعل فعوّضنى ولاية مصر والشام وسعة الأحوال .

ولاية أحمد بن طولون على مصر

سنة ٢٥٤ هجرية (٨٦٨ ميلادية)

ولما تقلد باكبالك[2] مصر وكان من عادة من يتولى من الأتراك على الأطراف أن يقيم فى الحضرة ويستخلف عنه غيره ذكر له

(١) اختلف المؤرخون فى موقف أحمد بن طولون من المستعين عند قتله (راجع الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٥) . (٢) فى الطبرى بايكباك .

أحمـــد بن طولون فاستخلفه على مصر وضم اليـــه جيشا فدخلها ومعه أحمد بن محمد الواسطى فى يوم الأربعاء لتســع[1] ليال بقين من شهر رمضان ســنة أربع وخمسين ومائتين متقلدا للقصبة وأسيوط وأسوان . ونزل بدار الامارة من العسكر .

حاله عند دخول مصر — وكان فى أضيق حال يحتقره كل من يراه . قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادى وكان فى سعة من المـــال فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه فلما رآه فى ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينـــار فقبلها ورأى بها موقعا وحظى ذلك الرجل عنـده فكان لا يتصرف فى شىء من الأمور إلا برأى ذلك الرجل وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية[2] .

حكايته مع ابن المـــدبر

وكان على الخراج أحمـــد بن محمد بن المـدبر وهو من دهاة الناس وشياطين الكتّاب وكان جبارا قاسـيا فى معاملة المسيحيين مبغوضا منهم ومن المسلمين .

(١) وفى كتاب الولاة للكندى "لسبع بقين من شهر رمضان" ص ٢١٢

(٢) تاريخ مصر لابن اياس أوّل ص ٣٧

فلما وصل أحمد بن طولون أهدى اليه ابن المدبر هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار بعد ما خرج الى لقائه هو وشقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدى ابن المدبر مائة غلام من الغور قد انتخبهم وصيرهم عدّة وجمالا وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه اذا جلس فاذا ركب ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردّها عليه فقال ابن المدبر : ان هذه لهمة عظيمة من كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف، نخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير أيام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له : قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها فرددتها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك فأنا اليهم أحوج منك . فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة : هذه أخرى أعظم مما تقدّم قد ظهرت من هذا الرجل ولم يجد بدا من أن يبعثهم اليه فتحوّلت هيبة

ابن المدبر الى ابن طولون ونقصت مهابة ابن المدبر (خطط المقريزى أوّل ص ٣١٤) .

ولم يلبث أحمد بن طولون أن عظم أمره وأصبحت سلطته تعادل سلطة الحاكم مع أنه لم يكن الى ذلك الوقت إلا نائبه فصار الكل يخشونه وخضع لسطوته من كان يظن أنه يقوى على معارضته من حكام الأقاليم .

خروج بغا الأصغر

سنة ٢٥٥ هجرية (٨٦٨ ميلادية)

ولما كان جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين خرج بغا الأصغر أو الأصفر وهو أحمد بن محمد بن عبدالله بن طباطبا فيما بين الاسكندرية وبرقة بموضع يقال له الكأس وسار فى جمع معه الى الصعيد فلقيه بهم بن الحسين فحاربه فقتل بغا وأتى برأسه الى الفسطاط .

انهزام ابن الصوفى والقبض عليه

سنة ٢٥٦ — ٢٥٩ هجرية (٨٦٩ — ٨٧٣ ميلادية)

وكان ابن الصوفى العلوى خارجا بصعيد مصر من سنة ثلاث وخمسين ومائتين ودخل اسنا فبعث اليه أحمد

ابن طولون بهم وقد عقد له على جيش فهزمه وبعد وقائع أخرى اضطرب أمر ابن الصوفى فمضى الى عيذاب فمكة ثم أرسل منها بعد ذلك الى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فخرج الى المدينة فمات .

خـــروج أحمـــد الى ابن الشـــيخ

سنة ٢٥٦ هجرية (٨٦٩ ميلادية)

وكان عيسى ابن الشيخ بن السليل الشيبانى واليا على فلسطين والأردن ثم تغلب على دمشق وامتنع من حمل المــال الى العراق واستولى على ارسالية من خراج مصر كانت موجهة الى العراق فكتب الخليفة الى ابن طولون يأمره بأن يخرج اليه ويتسلم أعماله ففرض أحمـد بن طولون فروضا واتخذ السودان فأكثر[1] وقبـل الخروج اليه كاتبه فجاوبه بما لم يوافقه فسار اليه واستخلف أخاه موسى بن طولون على مصر ثم رجع من الطـريق بكتاب ورد اليـه من العراق فدخل الفسـطاط لأيام خلت من شعبان سنة ست وخمسين ومائتين .

وبعث ماجور من العراق الى عيسى بن الشيخ فحاربه فانهزم أصحاب عيسى وقتل ابنه وتسلم ماجور أعمال الشام[2] .

(١) الكندى ص ٢١٤

(٢) الكندى ص ٢١٥

ثم بويع المعتمد بن المتوكل بالخلافة فأقر أحمـــد بن طولون على مصر .

وابتـــدأ أحمـد بن طولون فى بنيـان الميدانـ فى شعبان ســنة ست وخمسين ومائتين فأمر بحرث قبـــور اليهود والنصارى وبنى موضعها .

إحالة الأعمال الخارجة من مصر على أحمد بن طولون

سنة ٢٥٧ هجرية (٨٧١ ميلادية)(١)

ثم ورد له الأمر من يارجوخ بأن يتسلم الأعمال الخارجة عن يديه من أرض مصر فتسلم الاسكندرية من اسحاق بن دينار وخرج اليهـا يوم الاثنين لثمـان خلونـ من شهر رمضـان سنة سبع وخمسين ومائتين وعاد يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شوّال وقد سخط على أخيـه موسى بن طولون وأمره بلباس البيـاض(٢) .

(١) الكندى ص ٢١٦

(٢) كان شعار العباسيين السواد واذا سخطوا على أحد ألبسوه البياض كما فعل المأمون الخليفة العباسى لما قدم الفسطاط سنة ٢١٧ فانه سخط على عيسى بن منصور والى مصر بسبب اضطراب البلاد وقتئذ فأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض . راجع كتاب الولاة للكندى ص ١٩٢

بنـاء مسجد التنـور على الجبـل

سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٢ ميلادية)

وكان على الجبل مكان مشهور يزعمون أنه موضع تنور فرعون فأخبر بأن يهودا كان يقيم فيـه فأمر بأن يبنى فيه مسجد عليـه منارة فى صفر سـنة تسع وخمسين وجعل فيه صهريجا فيه المـاء[1] وقد تقدّم لنا ذكره فى الكلام على حديث الكنز .

خروجه الى الاسكندرية وترميم المنار

سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٣ ميلادية)

وفى يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين ومائتين عاد الى الاسكندرية مرة ثانية وأمر بحفر خليجها[2] .

وفى خلال هذه الزيارة أو الأولى رم شيئا من المنار وجعل فى أعلاه قبة من الخشب يصعد اليها من داخلها وكانت "مبسوطة مؤربة بغير درج"[3] .

(١) كتب الأستاذ ڤان برشم فى الرسالة التى وضعها بعنوان « جامع من العهد الفاطمى بالقاهرة » فى منشورات المجمع العلمى المصرى ج ٢ ما نصه : ومن بين ما أنشأه أحمد بن طولون الجامع القائم على القسم المعروف من المقطم بجبـل الجيوشى وقد جدده بدر الجمالى وزير المستنصر الملقب بأمير الجيوش وسمى جامع الجيوشى .

وقد اختلفت الأقوال فيمن هو البـانى لجامع الجيوشى الموجود الآن على المقطم هل هو بدر أم ابنـه الأفضل . وسنأتى على ما قيل فى ذلك فى رسالة الجامع الجيوشى ان شاء الله .

(٢) مقريزى ج ١ ص ١٣١ . (٣) مقريزى ج ١ ص ١٥٧

ورجع الى الفسطاط يوم الخميس لثمان خلون من شوّال سنة تسع وخمسين بعد أن استخلف عليها ابنه العباس بن أحمد .

إنشاء المارستان

سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٣ ميلادية)

وفى هذه السنة أمر أحمد ببنيان المارستان للرضى فى أرض العسكر[١] ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان ولما فرغ منه حبس عليه جملة من الأعيان من الدور والأسواق وكان ينفق من هذا الوقف أيضا على مسجد التنور وعين وسقاية أنشأهما بالمعافر وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء وحبسهما على ما ذكر وشرط أنه اذا جىء بالعليل تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ثيابا ويفرش له ويراح عليه بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ فاذا أكل فروجا ورغيفا أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه وكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء وينظر الى المرضى .

قناطر ابن طولون وبئره — قال القضاعى : كان السبب فى بناء هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمر بمسجد الأقدام

(١) وفى السيرة الطولونية أنه بنى فى سنة إحدى وستين ومائتين .

وحده وتقدّم عسكره وقد كده العطش وكان فى المسجد خياط فقال : يا خياط أعندك ماء؟ فقال نعم فأخرج له كوزا فيه ماء وقال اشرب ولا تمد يعنى لا تشرب كثيرا فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمد فيه حتى شرب أكثره ثم ناوله إياه وقال : يا فتى سقيتنا وقلت لا تمد . فقال : نعم أعزك الله موضعنا هاهنا منقطع وانما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية . فقال له : والماء عندكم هاهنا معوز . فقال : نعم . فمضى أحمد بن طولون فلما حصل فى داره قال : جيئونى بخياط فى مسجد الأقدام . فما كان بأسرع من أن جاءوا به فلما رآه قال : سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها . وابتدأ فى الإنفاق وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فجدوا فى العمل فلما جرى الماء أتاه مبشرا فخلع عليه وحمله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنىّ الدارّ ...

وبنى ابن طولون عليها القناطر وأجرى الماء الى الفسقية التى بقرب درب سالم[1] (المقريزى الجزء الثانى ص ٤٥٧) .

(١) هذه القناطر موجودة للآن وتعرف باسم قناطر ابن طولون وقناة البساتين ومجرى الامام ولم تكن معروفة إلا عند بعض أفراد حتى اهتدى كوربت بك بعد اجراء بعض التطبيقات الطبوغرافية وفحص بنائها الى أنها قناطر ابن طولون التى أقامها بين القرافتين الصغرى وهى ما كان من القرافة بسفح المقطم =

تقليده خراج مصر (سنة ٢٥٩ هجرية)

ثم ورد كتاب من المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه فى حمل الأموال فأجابه لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى وكان بلغه أن ابن المدبر وشقير الخادم وكان على البريد يكيدان له وقد كتبا الى الحضرة يقولان إن أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والعصيان بها وكان ابن المدبر ابتدع بمصر بدعا كثيرة فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم ما لا سماه المراعى وقرر على ما يطعم الله من البحر ما لا وسماه المصايد الى غير ذلك فانقسم حينئذ مال مصر الى خراجى وهلالى وكان الهلالى يعرف فى زمنه وما بعده بالمرافق والمعادن وقد عرف فيما بعد على عهد الدولة الفاطمية بالمكوس .

فلما وصل جواب ابن طولون الى المعتمد أنفذ المعتمد اليه بتقليده الخراج على مصر وبولايته على الثغور الشامية فرغب أحمد

= والكبرى وهى التى شرق القاهرة مما يلى المساكن ولم يبق من هذا الأثر الا بعض قناطر من قبيل ما فى جامع أحمد بن طولون وهى على قول المقريزى من بناء مهندس الجامع .

وما تخلف من البناء الأصلى مشيد بالآجر بحجم الآجر المستعمل فى جامع أحمد بن طولون وعلى هذا الاعتبار تكون هذه القناطر المثال الثانى من العقود الستينية بين أبنية مصر العربية . راجع حياة وأعمال أحمد بن طولون لكوربت ص ٥٣٢ وما كتبه جناب مستر كريسول فى السلسلة التاريخية « كرونولوجى » ص ٤٢ -

بنفسه عن المعادن والمرافق فأمر بتركها وكتب بإسقاطها فى سائر الأعمال وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة . قال المقريزى : "وقد أظفره الله عقيب ذلك بكنز فيه ألف ألف دينار" . ولهذا الكنز أيضا خبر أورده المقريزى (فى الجزء الثانى ص ٢٦٧) ونكتفى بالاشارة اليه .

الخلاف بينه وبين الموفق

ذكر جامع سيرة ابن طولون أن صاحب الزنج لما قدم البصرة فى سنة أربع وخمسين ومائتين واستفحل أمره أنفذ أمير المؤمنين المعتمد على الله تعالى رسولا فى حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحة من مكة اليه وكان الخليفة المهتدى بالله محمد بن الواثق نفاه اليها فلما وصل اليه جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوّض وبعد المفوّض تكون الخلافة للموفق طلحة وجعل غرب الممالك الاسلامية للمفوض وشرقها للموفق وكتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط وكان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه أهلا لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده شق ذلك عليه وزاد فى حقده وكان المعتمد متشاغلا بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الأمور وفسد تدبير الأحوال وفاز

كل من كان متقلدا عملا بما تقلده وكان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوض والموفق أنه ما حدث فى عمل كل واحد منهما من حدث كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه واستخلف على قسم ابنه المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى ابن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدّم الى كل منهما ألا ينظر فى عمل الآخر وخلد كتاب الشروط بالكعبة وأفرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج وأخرجه اليه وضم معه الجيوش فلما كبر أمره وطالت محاربته اياه وانقطعت موارد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذى كان يحمل فى كل عام واحتجوا بأشياء دعت الضرورة الموفق الى أن كتب الى أحمد بن طولون فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج وكانت مصر فى قسم المفوض لأنها من الممالك الغربية الا أن الموفق شكا فى كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو بسبيله وأنفذ مع الكتاب نحريرا خادم المتوكل ليقبض منه المال فما هو الا أن ورد نحرير على ابن طولون بمصر واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع

وغير ذلك وكتب أيضا الى أحمد بن طولون كتابا فى السر : إن الموفق إنما أنفذ تحريرا اليك عينا ومستقصيا على أخبارك وانه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه واحمل المال الينا وعجل انفاذه . وكان تحرير لما قدم الى مصر أنزله أحمد بن طولون معه فى داره بالميدان ومنعه من الركوب ولم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر وتلطف فى الكتب التى أجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار وما جرى الرسم بحمله من مصر وأخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وأرسل الى ماجور متولى الشام فقدم عليه بالعريش وسلمه اليه هو والمال وأشهد عليه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر فى الكتب التى أخذها من تحرير فاذا هى الى جماعة من قواده باستمالتهم الى الموفق فقبض على أربابها وعاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعه المال كتب اليه كتابا ثانيا يستقل فيه المال ويقول ان الحساب يوجب أضعاف ما حملت وبسط لسانه بالقول والتمس فيمن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضا عن ابن طولون فلم يجد

أحدا عوضه لما كان من كَيْس أحمد بن طولون وملاطفته وجوه الدولة فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال وأى حساب بينى وبينه أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره وكتب اليه جوابا شديد اللهجة أورده جامع السيرة ونقله المقريزى فى الجزء الثانى ص ١٧٩ فلما وصل الى الموفق أقلقه وبلغ منه مبلغا عظيما وأغاظه غيظا شديدا وأحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة وأشدّها بأسا وإقداما فتقدّم اليه فى صرف أحمد ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور فامتثل لذلك وكتب الى ماجور كتاب التقليد وأنفذه اليه فلما وصل اليه الكتاب توقف عن ارساله الى أحمد ابن طولون لعجزه عن مناهضته[1] .

بعد ذلك خرج موسى بن بغا فنزل الرقة وبلغ ابن طولون أنه سائر اليه فعمل فى الحذر منه واستعدّ لحربه ومنعه من دخول أعماله وبنى حصنا بجزيرة الروضة فى سنة ثلاث وستين ومائتين ليحفظ به حرمه وماله فلما بلغ موسى بن بغا الى الرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوّته ثم عرضت لموسى علة طالت به وكان بها موته وكفى ابن طولون أمره فقال محمد ابن داود فى ابن طولون :

(١) المقريزى ج ٢ ص ١٧٨ و ١٧٩

لما ثوى ابن بغا بالرقّتين ملا
ساقيه ذَرْقًا الى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به
بالعسف والضرب والصناع فى تعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب
يرى عليها لباس الذل مذ بنيت
بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبا
لكن بناها غداة الروع للهرب (١)

ولم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئا فشيئا واجتهد أحمد بن طولون فى بنيان المراكب الحربية وإطافتها بالجزيرة وقد ألزم قوّاده وثقاته أمر الحصن وفرقه عليهم قطعا فقام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعاهدهم بنفسه فى كل يوم ومن كثرة ما بذل فى هذا العمل قدّر أن كل طوبة منه وقعت عليه بدرهم وبلغ مصروف الحصن ثمانين ألف دينار ذهبا وكان يعرف بحصن الجزيرة (٢) .

(١) الكندى ص ٢١٨ و ٢١٩

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ثان ص ٢٢٢ مطبعة الموسوعات .

خروج أحمد بن طولون الى الشام

سنة ٢٦٤ هجرية = ٨٧٨ ميلادية

ثم توفى ماجور بدمشق واستخلف ابنه عليا فحرك ذلك ابن طولون على المسير فكتب الى على يخبره بأنه سائر اليه وأمره باقامة الأنزال والميرة لعساكره فردّ عليه على بن ماجور بأحسن جواب وخرج أحمد فى جيوشه لثمان بقين من شعبان سنة أربع وستين واستخلف ابنه العباس على مصر وضم اليه أحمد بن محمد الواسطى مدبرا ووزيرا فبلغ أحمد الى الرملة فتلقاه محمد بن رافع خليفة ماجور عليها وأقام له الدعوة بها فأقره عليها ومضى الى دمشق فتلقاه على بن ماجور وأقام له بها الدعوة فأقام أحمد بها حتى استوثق له أمرها ثم استخلف عليها أحمد بن دوغباش ومضى الى حمص فلقيه عيسى الكرخى خليفة ماجور فسلمها اليه ثم بعث الى سيما الطويل بأنطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه فسار اليه أحمد فى جيش عظيم وبعد حصار شديد استولى عليها وقتل سيما فى صفر سنة خمس وستين ومائتين .

ومضى أحمد بن طولون الى طرسوس بأصحابه فغلا السعر[1] بها واضطرب أهلها ونابذوه فقاتلهم .

(١) الكندى ص ٢٢٠

عصيان العباس على أبيه أحمد بن طولون

سنة ٢٦٥ هجرية = ٨٧٩ ميلادية

وكان عازما على أن يقيم بالثغور ولكن أتاه الخبر من مصر أن ابنه العباس قد خالف عليه وكان السبب فى مخالفته لأبيه أنه استخص قوادا من قواده كانوا على خوف شديد من أحمد ابن طولون فحسنوا للعباس التغلب على مصر والقبض على أحمد ابن محمد الواسطى وبلغ الواسطى ما عزموا عليه فكتب الى أحمد بن طولون يخبره وعلم العباس ذلك فازداد وحشة من أبيه وعمد الى أحمد بن محمد الواسطى فقيده ثم خرج الى الجيزة وعسكر بها واستخلف أخاه ربيعة على الفسطاط وأظهر أنه سائر الى الاسكندرية حتى وصل اليها ومنها توجه الى برقة وقدم أحمد من الشام الى الفسطاط يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين فأنفذ الى العباس يدعوه الى الرجوع وكتب اليه كتابا ألان له فيه جانبه ووعده ألا يسوءه[1] وهم العباس بالشخوص اليه ففزعت الطائفة التى حسنت له الخروج من أبيه وعلموا أنه موقع بهم لحضوه على المقام فرجع الى قولهم وعزم على المسير الى افريقية ورأى أنها أمنع له من برقة

(١) كتاب ابن طولون لابنه العباس وارد فى "صبح الأعشى" ج ٧ ص ٥

فكتب الى ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ان كتاب المعتمد ورد عليه بتقليده افريقية ويأمره بالدعاء له بها ويخبره أنه سائر اليه ثم سار فنزل لبدة فخرج اليه عاملها وأهلها فتلقوه وأكرموه ولكنه أمر بنهبها فنهبت وأهلها على غرة فقتلت رجالهم وفضحت نساؤهم وبلغ الخبر الياس بن منصور النَّفُوسى وهو يومئذ رأس الإباضية وبعث إبراهيم بن أحمد بجيش آخر فأطبق الجيشان على العباس فباشر يومئذ الحرب بنفسه وحسن بلاؤه وأثر فيه ولكن لم يلبث أن قتل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه وحماته ونهبت أمواله وسلاحه ورجع هاربا الى برقة فى ضر واخلال[1] .

إخماد عصيان العباس

سنة ٢٦٨ هجرية = ٨٨١ ميلادية

وخرج أحمد بن طولون فى عسكر عظيم قيل إنه بلغ مائة ألف لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة ثمان وستين ومائتين وقد أجمع على النهوض بنفسه الى برقة ووصل الى الاسكندرية فأقام بها وهرب أحمد بن محمد الواسطى من بين يدى العباس ولقى أحمد ابن طولون فصغّر أمر العباس عنده فعقد على جيش سيره الى

(١) الكندى ص ٢٢٣

برقـة فالتقى بأصحاب العباس فانهزموا وقتل منهم كثير وهرب العباس فأدركوه يوم الأحد لأربع خلون من رجب سنة ثمان وستين ومائتين ورجع أحمد بن طولون الى الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب وأتى بالأسرى وقد بنيت لهم دكة عظيمة رفيعة السمك وأحضر جعفر بن جدار من خاصة العباس وممن أغروه فضرب ثلثمائة سوط وقطعت يداه ورجلاه وألقى من الدكة .

خروج المعتمد من العراق للحاق بمصر ومنعه

سنة ٢٦٩ هجرية (٨٨٢ ميلادية)

وخرج أحمد الى الشام ومعه العباس مقيدا ومنها سار يريد المسير لمحاربة أهل طرسوس وفيها يا زمان الخادم فتلقاه كتاب المعتمد يعلمه أنه قادم عليه ليلتجئ اليه لتحكم أخيه الموفق فيه والتضييق عليه وهو ولى العهد حتى إنه لم يبق للمعتمد وهو الخليفة الا الاسم فتوقف أحمد عن المسير وكتب الى المعتمد يواعده أنه يحضر اليه ويحمله الى مصر ويجعلها دار الخلافة ويذب عنه من يخالفه فى ذلك فتهيأ المعتمد وخرج من العراق يريد اللحاق بمصر وأقام يتصيد بالكحيل وقدم صاعد بن مخلد من عند أبى أحمد الموفق ثم شخص الى سامرا فى جماعة من القوّاد فى جمادى الآخرة

وقـــدم قائدان لابن طولون يقال لأحدهما أحمـــد بن جبغويه وللآخر محمد بن عباس الكلابى الرقة فلما صار المعتمد الى عمل اسحاق بن كُنداج وكان العامل على الموصـل وعامة الجزيرة وكان من مع المعتمد من القواد حذروه المرور به وخوّفوه منـه فأبى الا المرور به وقال لهم : انما هو مولاى وغلامى وأريد أن أتصيد فان فى الطريق اليه صيدا كثيرا . فلما صاروا فى عمل اسحاق وقد نفذت اليه الكتب من قبل صاعد بالقبض عليهم لقيهم وسار معهم وانتظر حتى ارتحل التباع والغلمان الذين كانوا مع المعتمد وخلا بالقوّاد فقال لهم : انكم قد قربتم من عمل ابن طولون والمقيم بالرقة من قوّاده وأنتم اذا صرتم اليـه فالأمر أمره وأنتم من تحت يده ومن جنده أفترضون بذلك وقد علمتم أنه انما هو كواحد منكم ، وجرت بينه وبينهم مناظرة ولمـا طالت بمجلس المعتمد قال لهم : قوموا بنا حتى نتناظر فى هذا فى غير هذا الموضع وأكرموا مجلس أمير المؤمنين من ارتفاع الصوت فيه ، فأخذ بأيديهم وأخرجهم من مضرب المعتمد فأدخلهم مضرب نفسـه وعند ذلك دخل جلة غلمانه وأصحابه وأحضرت القيود وشد غلمانه على كل من كان شخص مع المعتمد من سامرا من القوّاد فقيدوهم فلما قيدوا وفرغ من أمرهم مضى الى المعتمد فعـذله فى شخوصه عن دار ملكه

وملك آبائه وفراقه أخاه وهو مشتغل بالحروب ثم حمله والذين كانوا معه فى قيودهم حتى وافى بهم سامرا[١] .

غضب ابن طولون على بكار بن قتيبة

وعقد الموفق لابن كُنداج على مصر ونصب لاحمد الحرب وصرح بعزله ولعنه وعلم ابن طولون بما وقع فرجع الى دمشق وأمر باحضار القضاة والفقهاء والأشراف وأمر أن يكتبوا بخلع الموفق من ولاية العهد فأجاب القضاة كلهم الى خلعه وسماه بكار بن قتيبة الناكث وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور فطلب منهم أحمد أن يلعنوا الموفق فامتنع بكار فألح عليه فأصر على الامتناع حتى أغضبه وكان قبل ذلك مكرما معظما عارفا بحقه وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار فيتركها بختمها ولا يتصرف فيها فلما غضب عليه أرسل اليه : أين جوائزى؟ وكان ابن طولون يظن أنه أنفقها وانه يعجز عن القيام بها فلهذا طالبه . فقال بكار : على حالها . فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيسا فقبضها أحمد وكان قبل ذلك أرسله الى ابنه العباس لما خالف عليه ببرقة فأجابه العباس الى الرجوع الى أبيه ثم خلا ببكار فقال له : المستشار مؤتمن أتخاف علىّ من أبى ؟

(١) الطبرى حادى عشر ص ٣٠٠ طبع المطبعة الحسينية المصرية .

قال : قد أمنك وحلف لك ولا أدرى أيفى أم لا . وامتنع العباس من الرجوع معهم .

ولما اعتقل بكار أمره ابن طولون أن يسلم القضاء الى محمد ابن شاذان الجوهرى ففعل وجعله كالخليفة له وبقى مسجونا مدة سنتين وكان يحدث فى السجن من طاق فيه لأن أصحاب الحديث شكوا الى ابن طولون انقطاع سماع الحديث من بكار وسألوه أن يأذن له فى الحديث ففعل .

وبلغ الموفق ما فعله أحمد بن طولون فكتب الى عماله يأمرهم بلعنه على المنابر فلعن عليها بما صيغته : اللهم ألعنه لعنا يفل حده ويتعس جده واجعله مثالا للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين[1] . (الكندى ص ٢٢٩) .

خروج أحمد بن طولون الى طرسوس

ثم مضى أحمد بن طولون الى طرسوس من دمشق فوجد يازمان قد شخص بها ونصب المجانيق على سورها فنزل أحمد ابن طولون بجيوشه عليها فى شدة من البرد وكثرة من الأمطار

(١) قال الطبرى فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ٢٧٠ « وقرئ كتاب فى المسجد الحرام بلعن ابن طولون » حادى عشر ص ٣٢٠ طبع المطبعة الحسينية المصرية .

والثلوج فأرسل يازمان الماء على عسكر أحمد بن طولون من نهر البردان فغرق عسكره ولم يكن لابن طولون مقام فرحل عنها ليلا ورجع أذَنة فأقام بها[1] .

مرض أحمد بن طولون ووفاته

سنة ٢٧٠ هجرية (٨٨٣ ميلادية)

ثم ارتحل منها الى المصيصة فأقام بها أياما وعرضت له علته التى مات فيها فأغذ السير الى مصر والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما فركب فى الليل الى الفسطاط فدخلها يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبعين ومائتين وتزايدت علته فأمر الناس بالدعاء له فغدا الناس بالدعاء له الى مسجد محمود بسفح المقطم وحضر معهم القصاص فدعوا له ثم غدوا أيضا بالدعاء له وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين وحضروا أيضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان وأقاموا على ذلك أياما ثم توفى أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر خلون[2] من ذى القعدة

(١) الكندى ص ٢٢٩

(٢) قال الطبرى ولست خلون من شعبان سنة ٢٧٠ ورد الخبر بموت أحمد بن طولون مدينة السلام وقال بعضهم كانت وفاته يوم الاثنين لثمان عشرة مضت من ذى القعدة منها (الطبرى حادى عشر ص ٣٢٨ و ٢٩ طبع المطبعة الحسينية المصرية) .

سنة سبعين ومائتين وسنه فى بعض الروايات خمسون سنة ولما بلغت وفاته المعتمد اشتد وجده وجزعه عليه وقال يرثيه :

الى الله أشكو أسى عرانى كوقع الأسل
على رجل أروع يرى فيه فضل الرجل
شهاب خبا وقده وعارض غيث أفل
شكت دولتى فقده وقد كان زين الدول[1]

(١) قال ابن خلكان وزرت قبره فى تربة عتيقة بالقرب من الباب المجاور للقلعة على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى بسفح المقطم . أول ص ٦٩

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٣١/٣٠٠)

استدراك وتصحيح

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٩	له على	لعلى بن محمد
٢١	٢٠	٢٦١	٢٦٥
٢٥	١٣	٢٤٧	٣٣٩
٣٧	٥	كثيرة	كبيرة
٤١	١١	القوائم	الدعائم القوائم
٤٥	١	الستينى	الستينى (المهموز)
٥١	١٠	العمرى	العمرى (قبة الصخرة)[1]
٥٩	٢	الغربى	الجنوبى الغربى
٦٥	١٦	الفسيفساء	فسيفساء
٦٧	١٣	لمبانى قبتى	لقبتى
٧١	٩	دوائر	دائر
٧٥	١٨	٤٦٤ هـ (١٠٧٢) ميلادية	٤٥٤ (١٠٦٢ ميلادية)
٧٧[2]	٤	المنارة	المنارة صريحا
٨٥	٤	٦٠٦ هجرية (١٢٠٩ ميلادية)	٧٠٦ – ٧٠٩ (١٣٠٦ – ١٣٠٩م)
٨٥	١٧	سقيفة	مظلة
٨٥	١٨	ذات الخ	وليست على قاعدة ذات قطاع مربع
٩٥	١٢	به	بها
٩٥	١٣	وعلى السلم	و بأعلى الشكل
١٢٠	١	بهم	بهم
١٢٢	٢٠	١٣١	١٧١
لوحة رقم ٦	—	الايزار	الإزار

(١) ترد هــذه التسمية « الجامع العمرى وجامع عمر » فى المؤلفات الافرنجية وهى فى غير محلها لان عمر لم يبن على الصخرة مسجدا .

(٢) الملحوظ (٢) الوارد بآخر هذه الصفحة محله ص ٧٦ س ١١ بعد كلمة « كرونولوجى » .

(اللوحة رقم ١)



المدخل الشرقي للمسجد

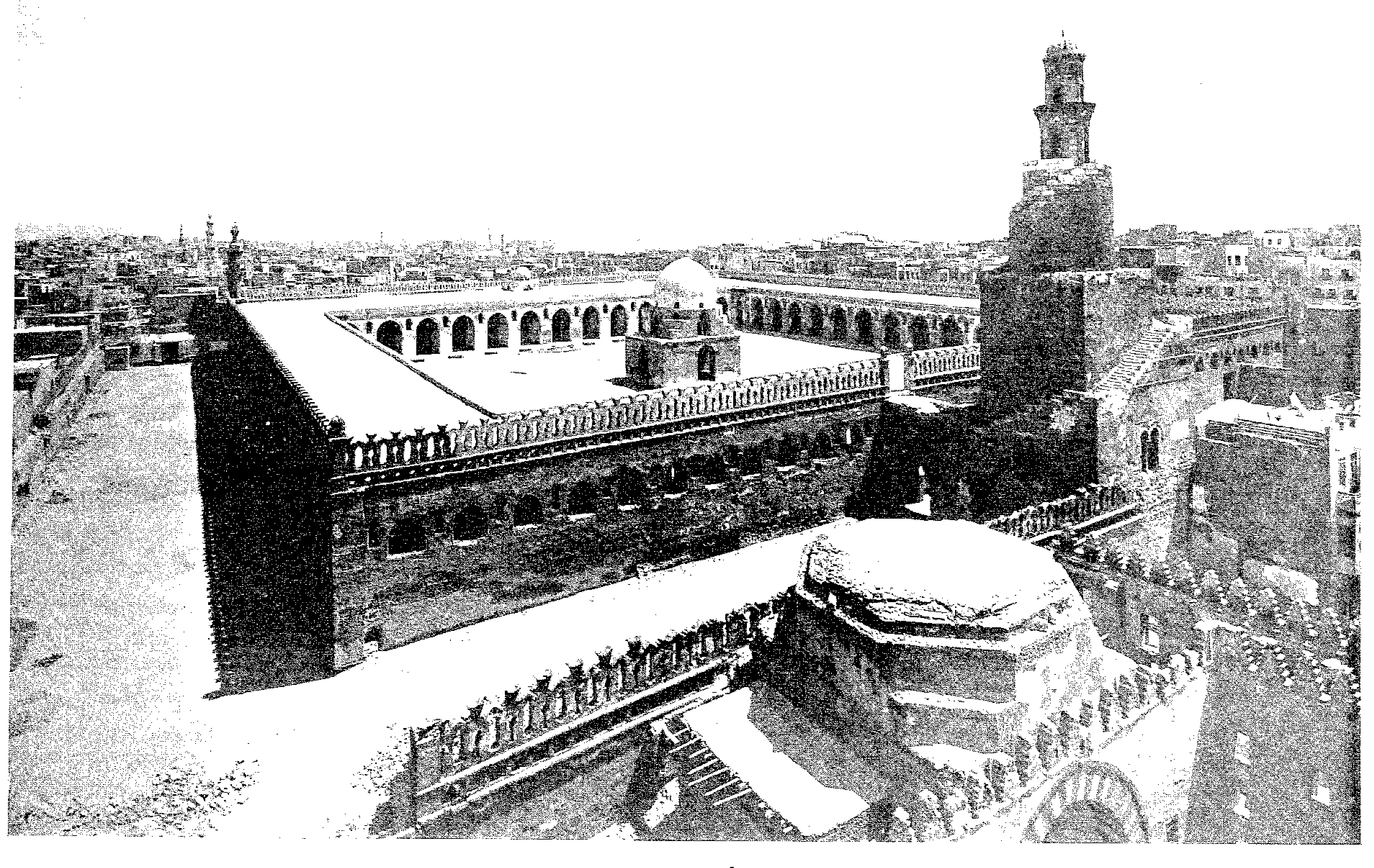
(لوحة رقم ٢)



(من مجموعة لجنة الآثار)

اللوح التاريخى

(لوحة رقم ٣)



(كليشيه كريسول)

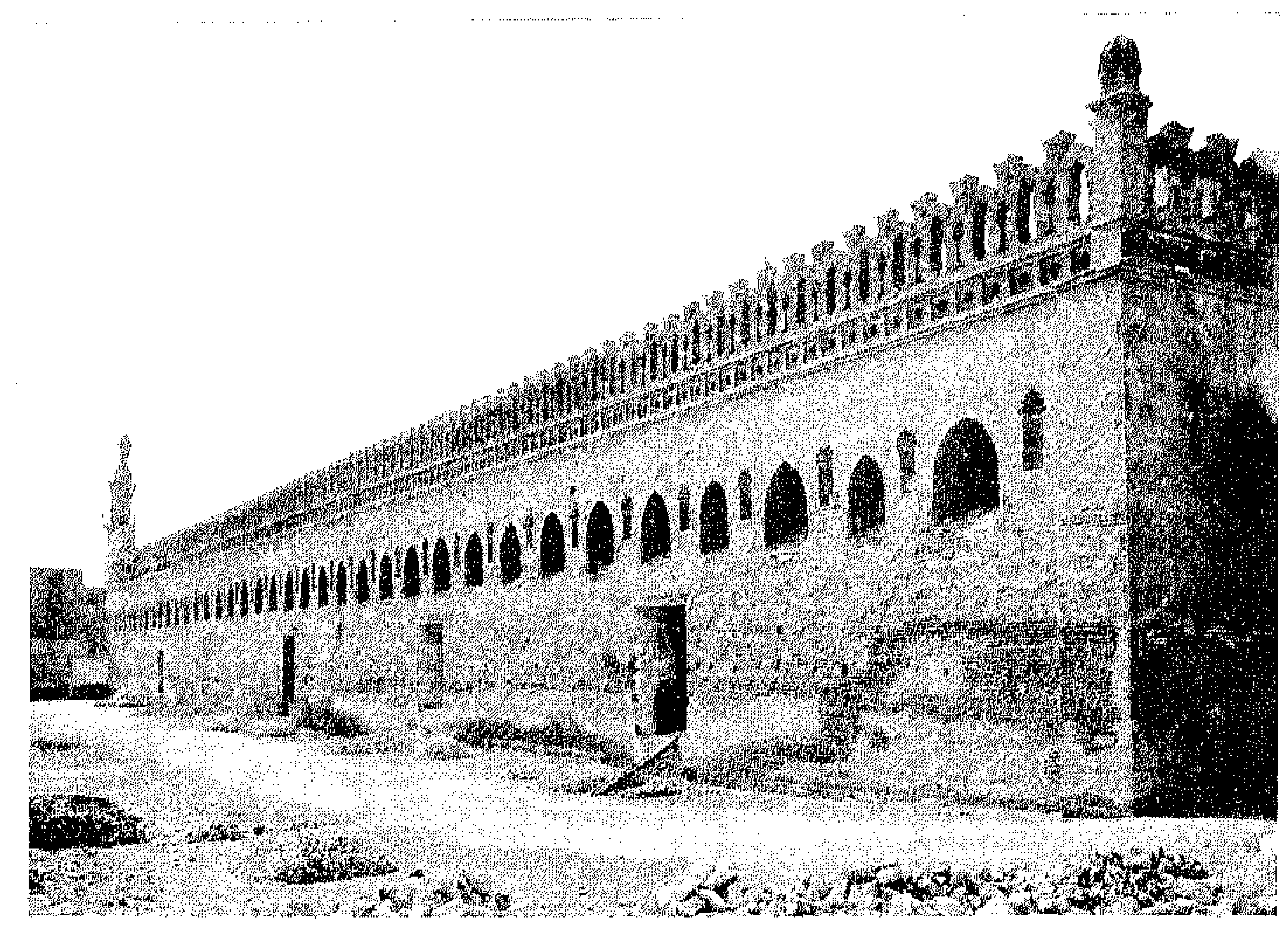
منظر عام للمسجد مأخوذ من أعلا منارة المدرسة الصرغتمشية

(لوحــة رقــم ٤)

شارع الزيادة بالحالة التى كان عليها منذ أربعين سنة

(من مجموعة لجنة الآثار)

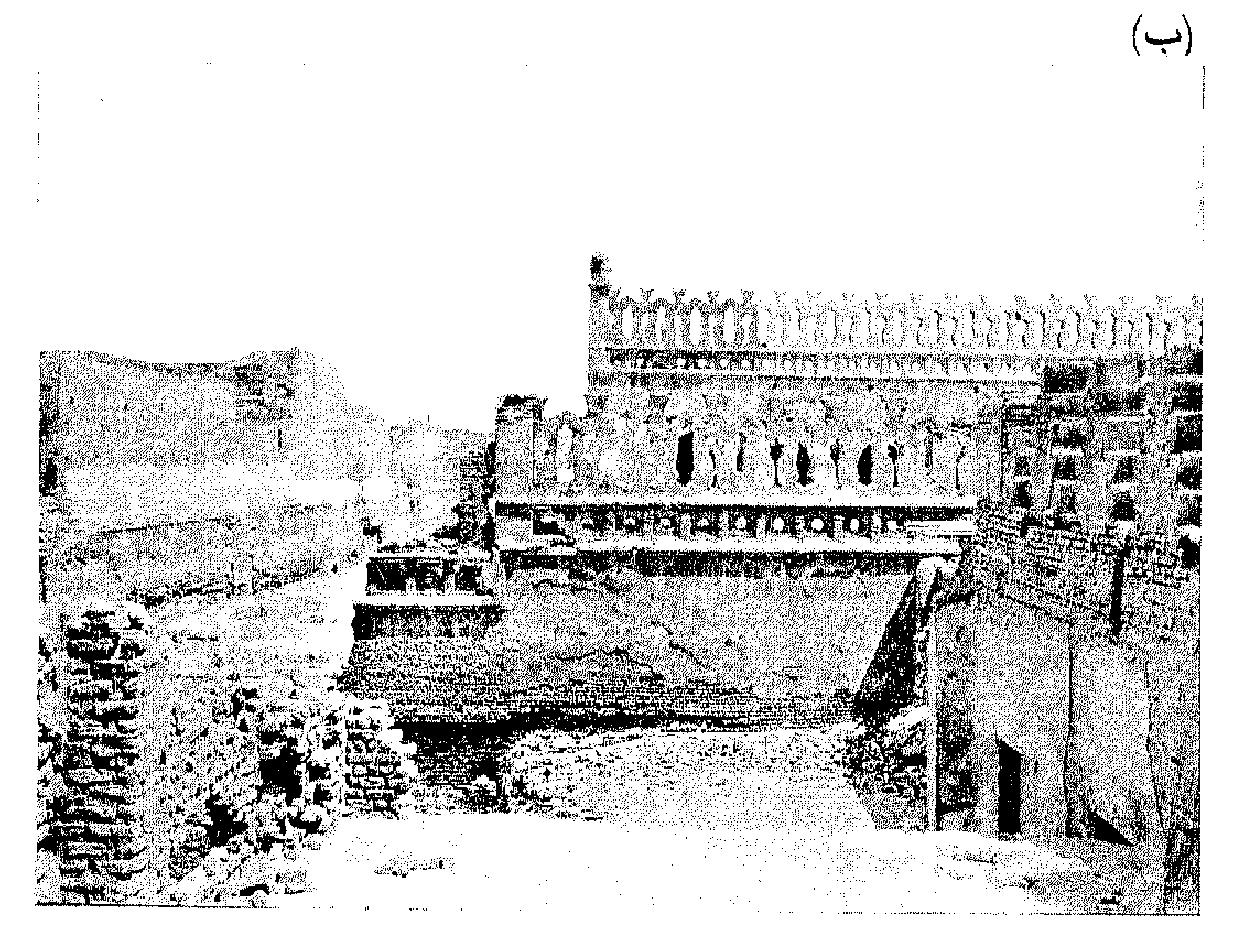
(لوحة رقم ٥ أ)



(كليشيه كريسول)

وجهة المسجد على الزيادة البحرية الشرقية

(ب)



(كليشيه كريسول)

جزء من وجهة سور الزيادة من جهة المدرسة الصرغتمشية

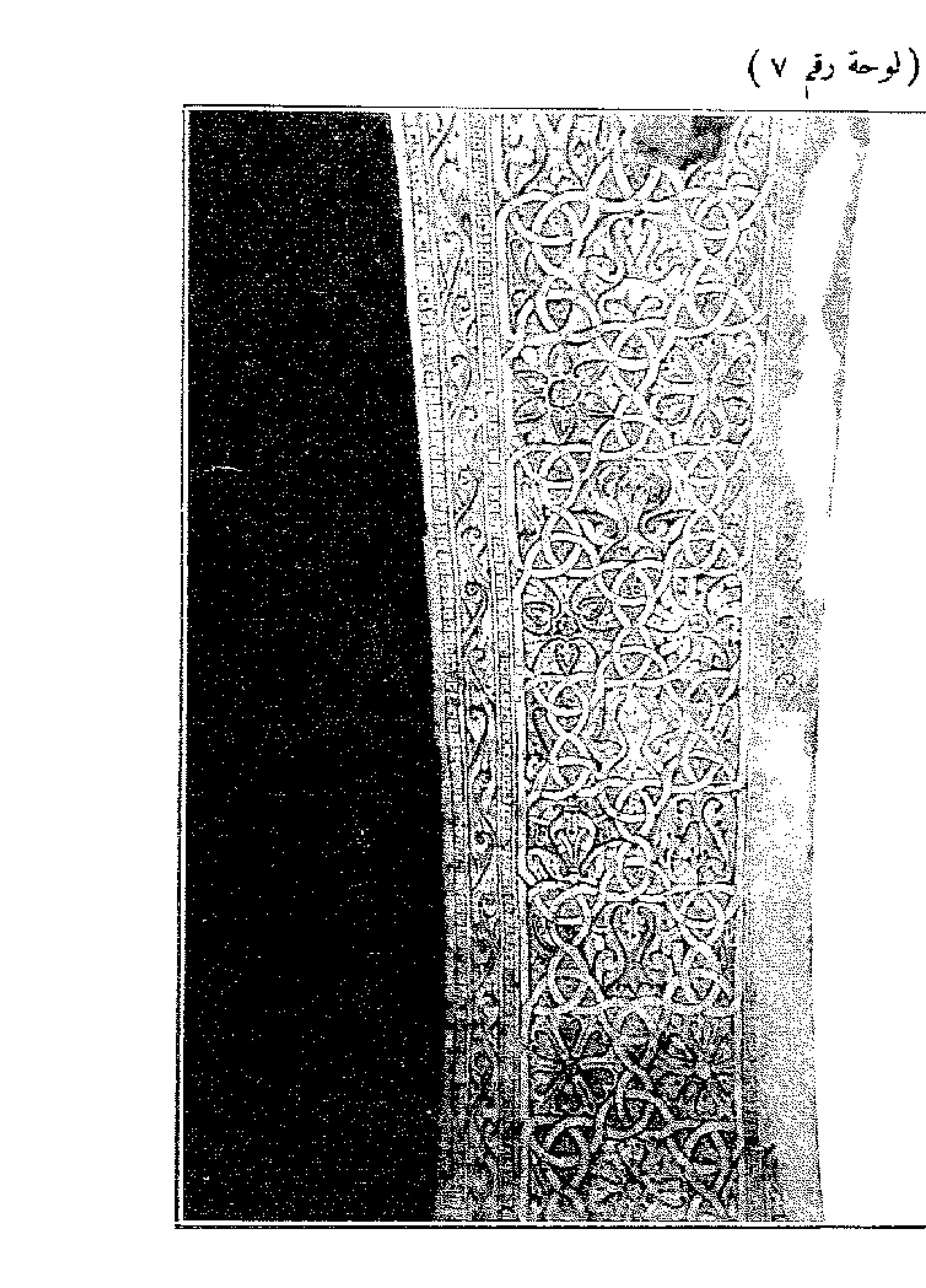
(لوحـــة رقـــم ٦)

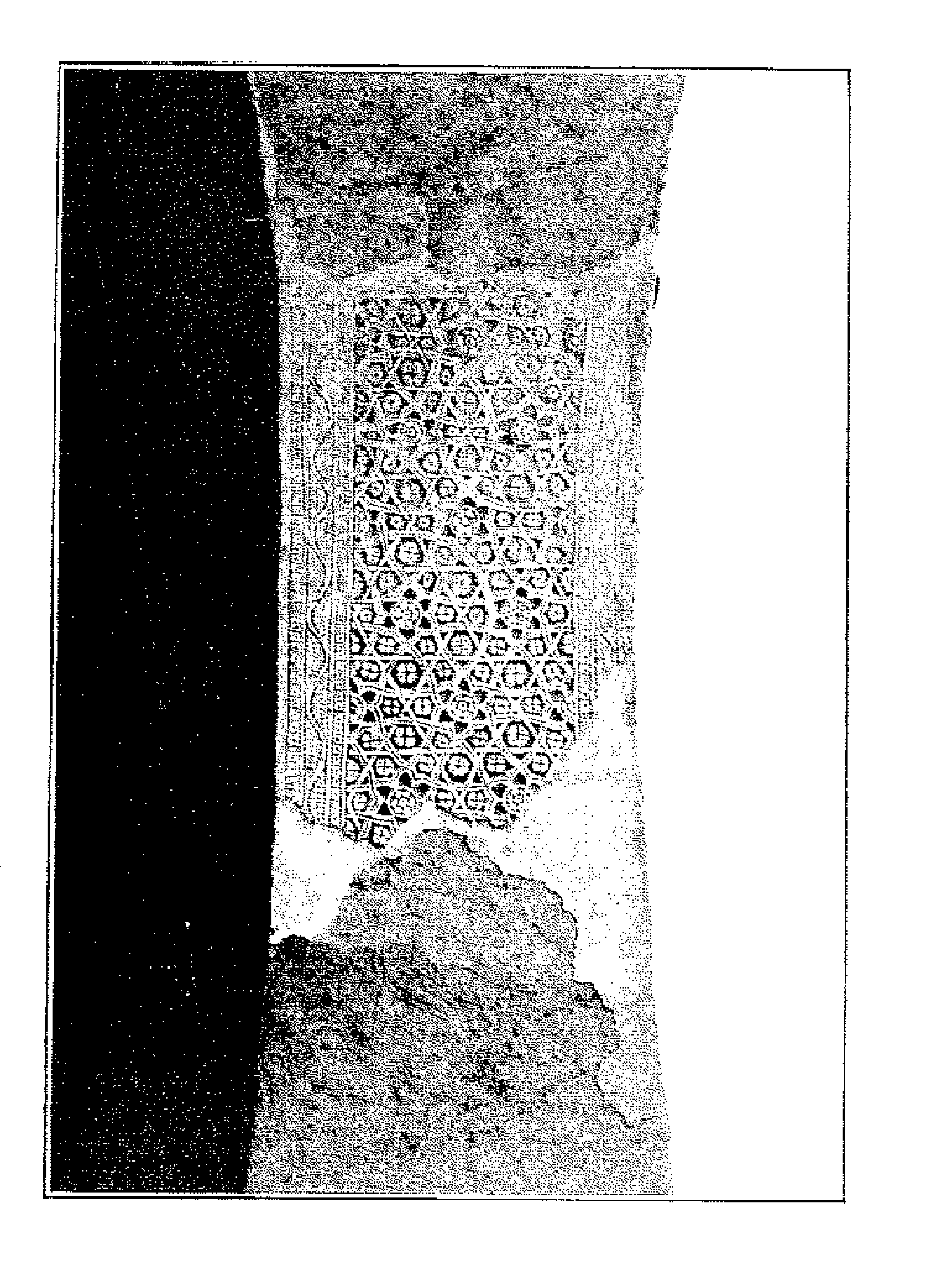


(من مجمـــوعة لجنـــة الآثار)

منظر بعض البوائك والازار قبل عمل السقف الحالى

(لوحة رقم ٧)

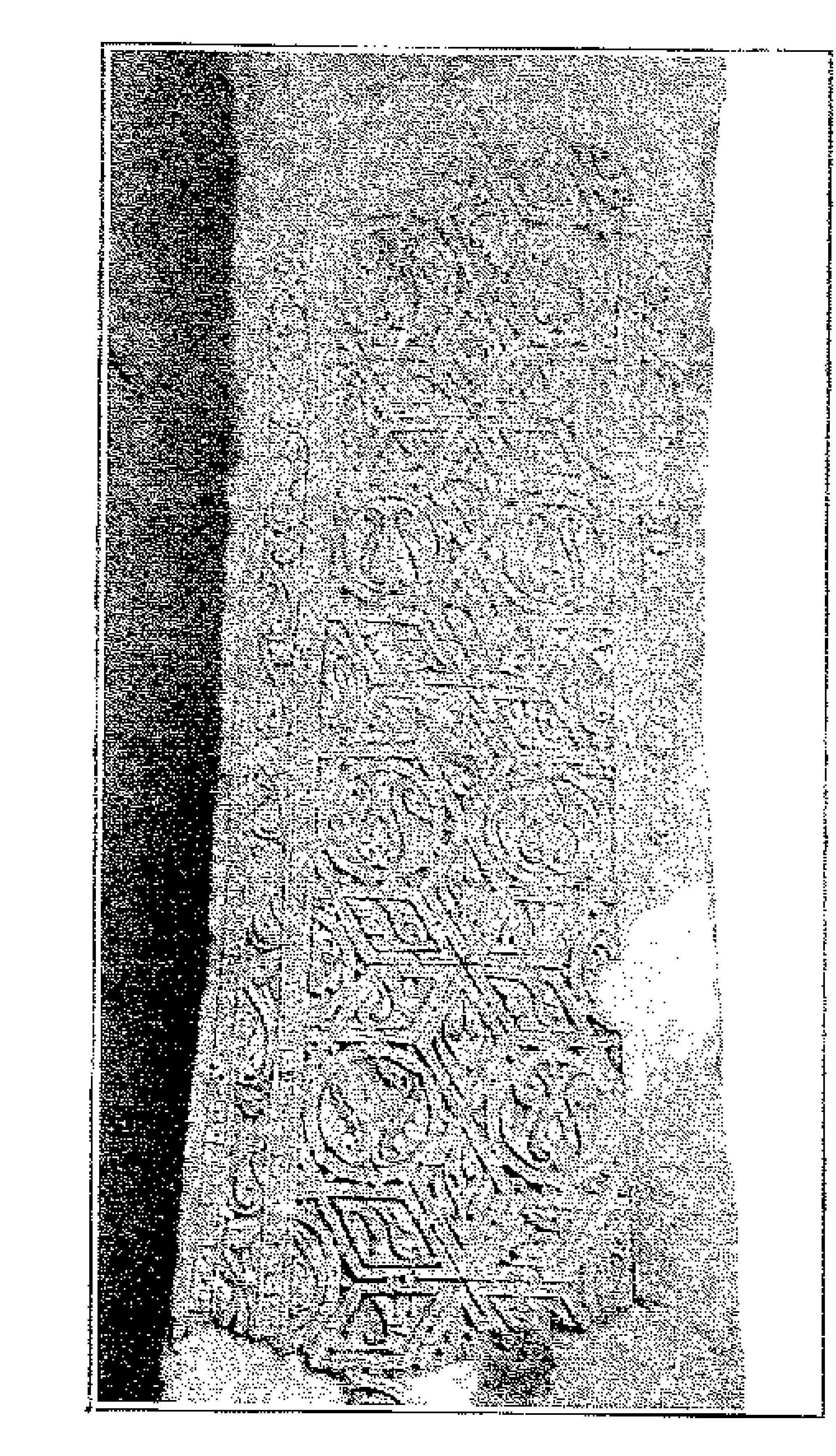


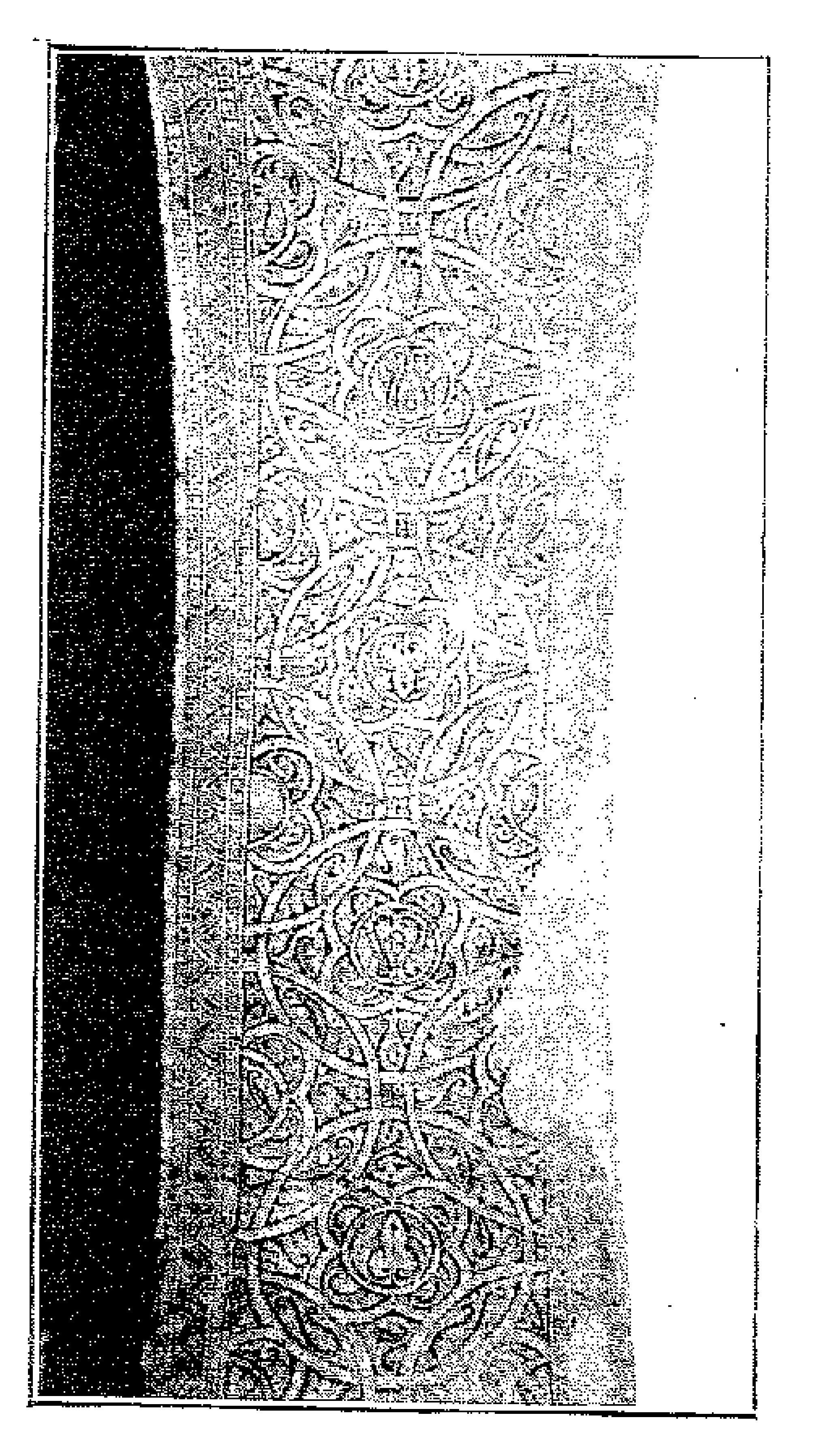


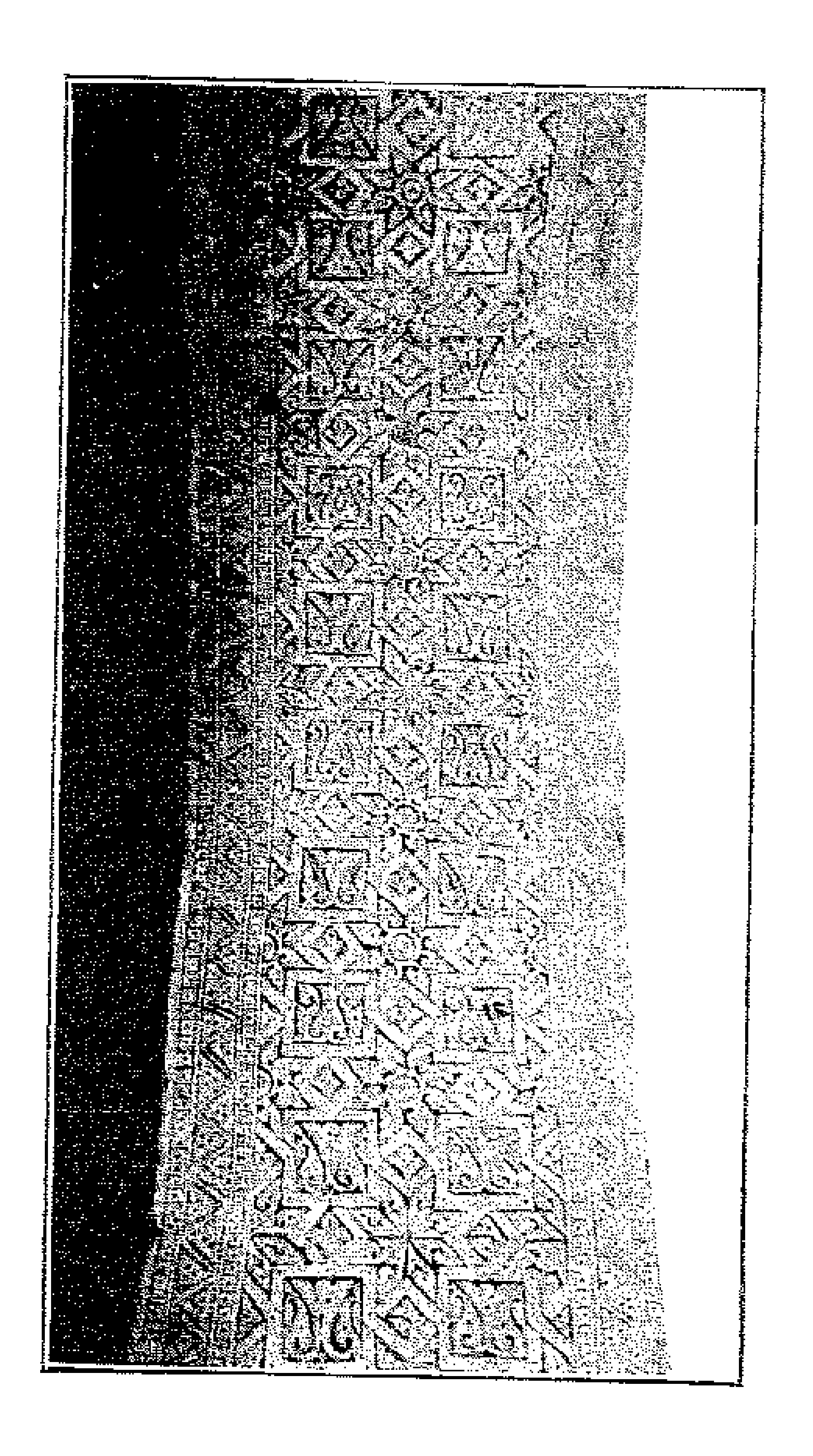
زخارف جصية من بواطن العقود بالوجهة الجنوبية للصحن

(كليشيه كريسول)

(لوحة رقم ٨)

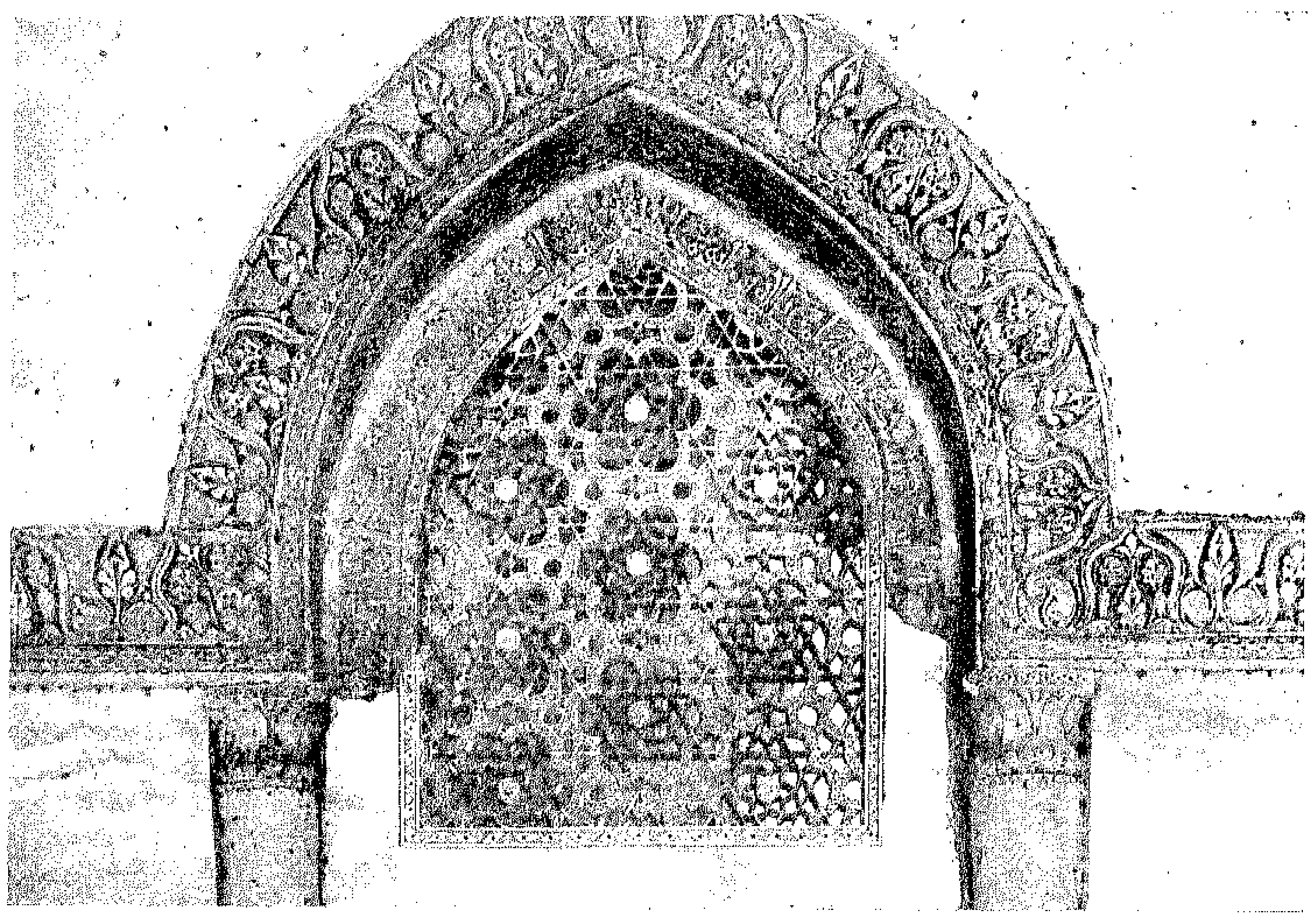






زخارف من بواطن العقود بالوجهة الجنوبية للصحن
(كليشيه كريسول)

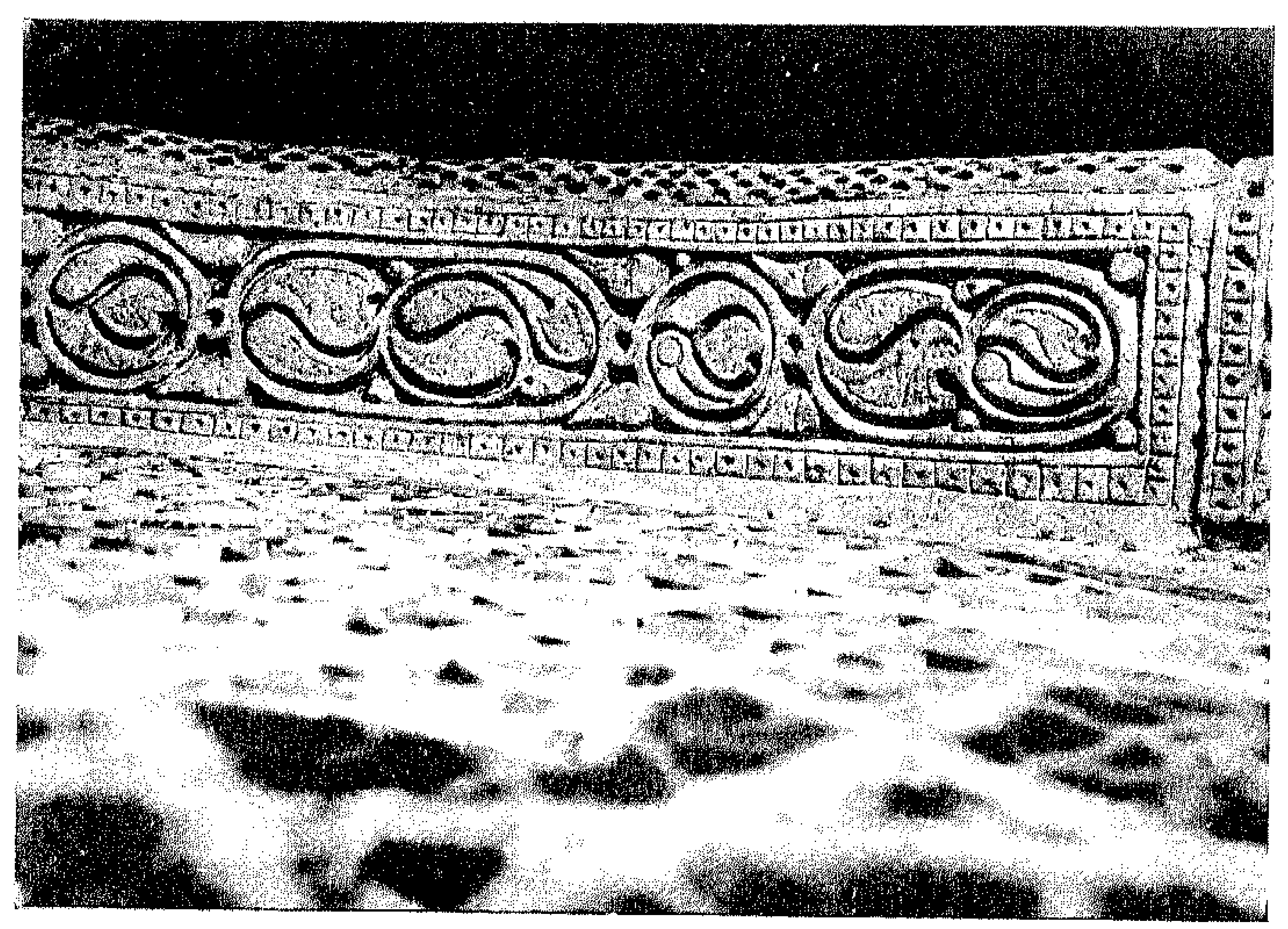
(لوحـــة رقـــم ٩ أ)



(كليشيه كريسول)

طاقة عليها شباك من الجص من العهد القديم

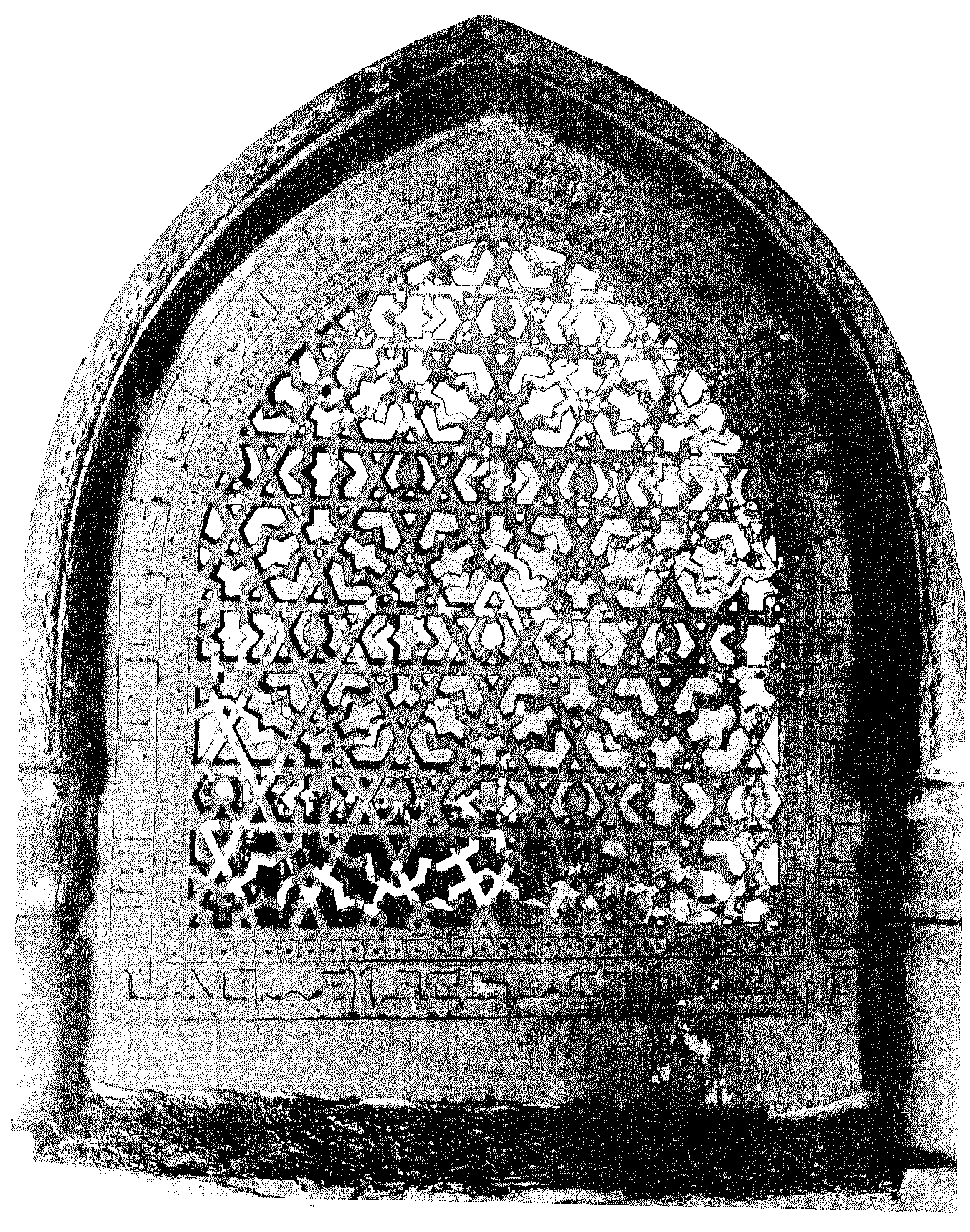
(ب)



(كليشيه كريسول)

باطن عقد احدى الطاقات

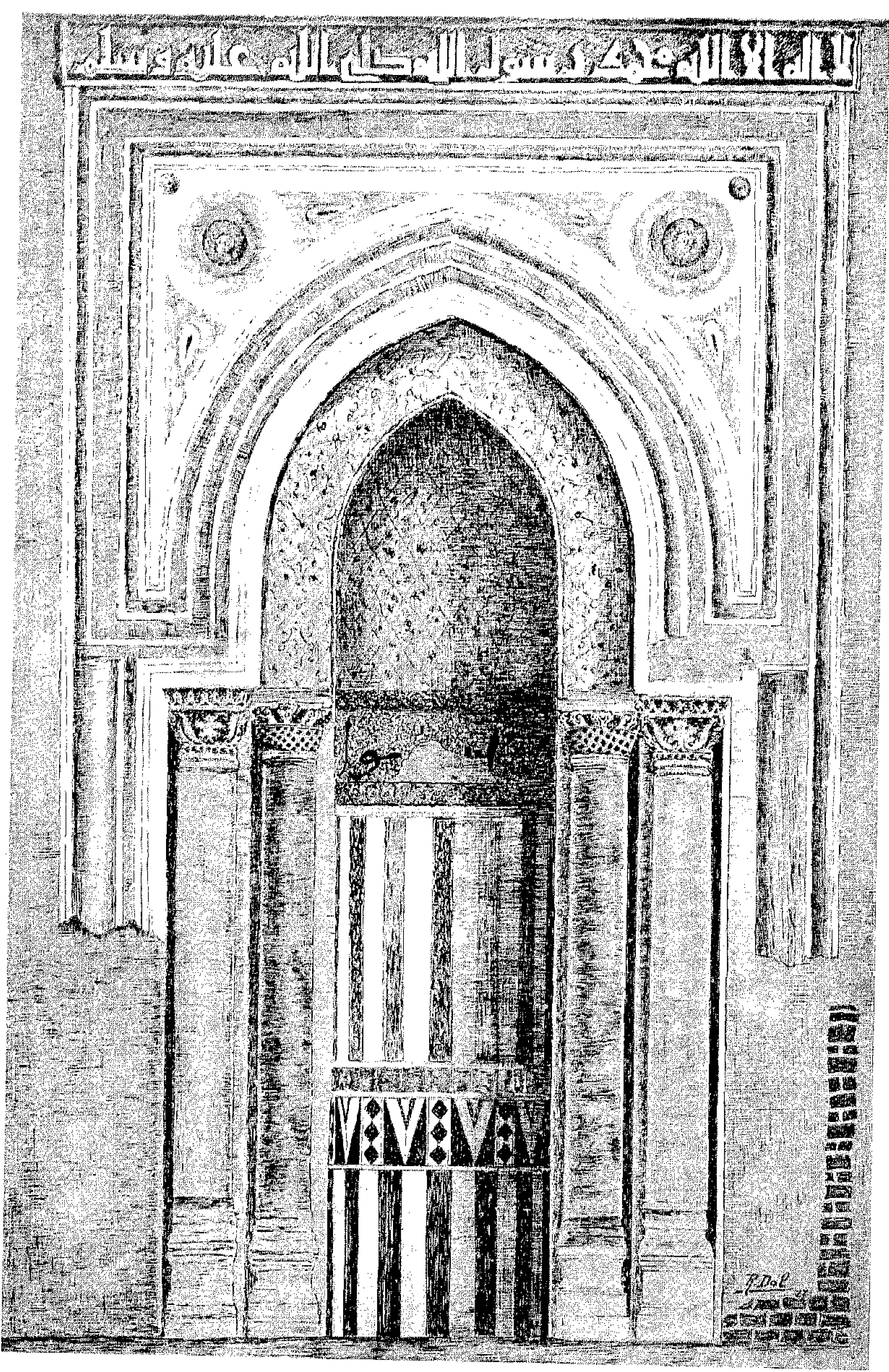
(لوحـــة رقـــم ١٠)



(من مجمـوعة لجنـة الآثار)

شباك من الجص من زمن لاجين

(لوحة رقم ١١)



المحراب الكبير

(لوحـــة رقـــم ١٢ أ)

(من مجموعة لجنة الآثار)

محراب من العصر الفاطمى باسم المستنصر

(ب)

(من مجموعة لجنة الآثار)

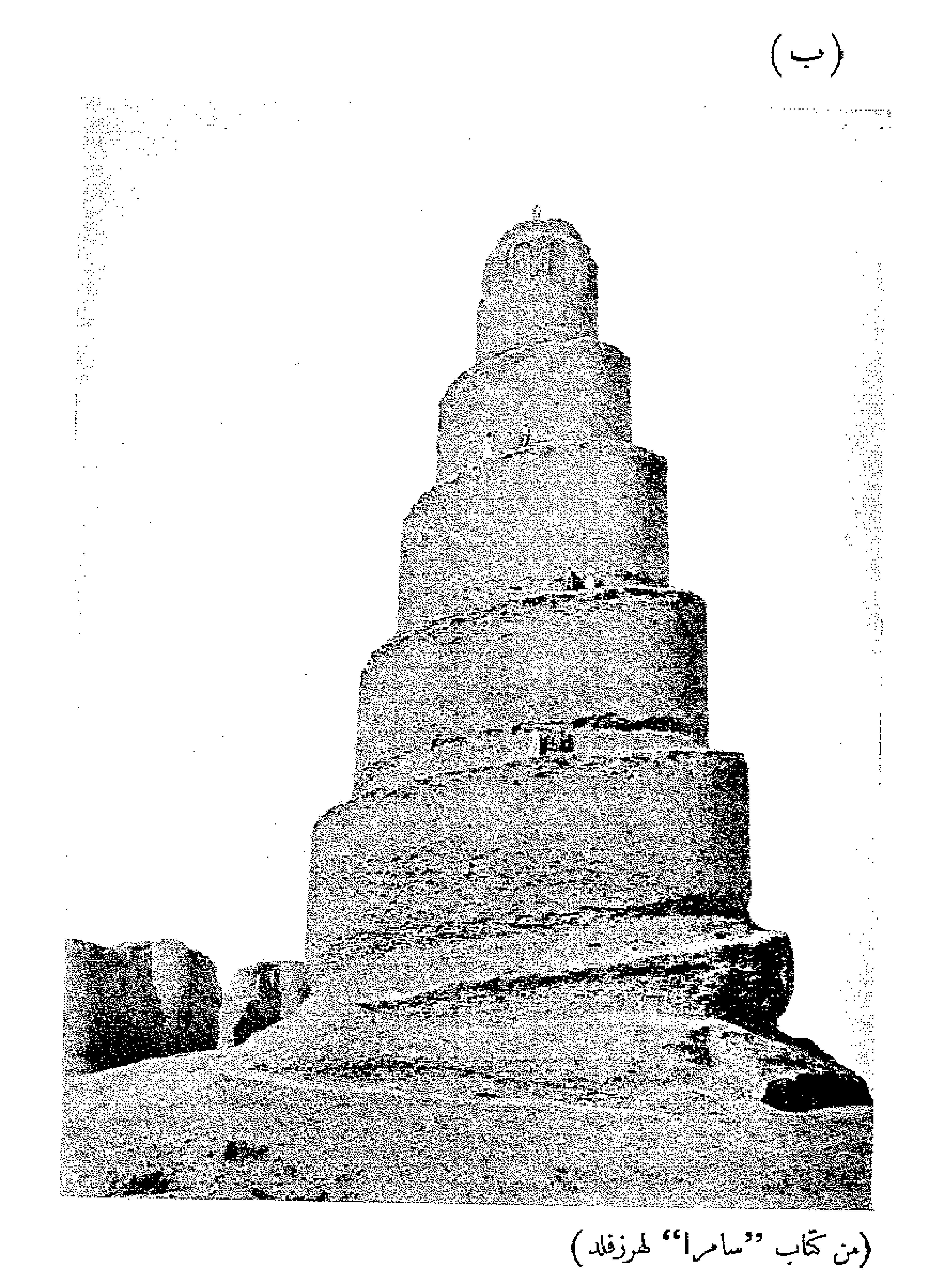
أحد المحرابين المجاورين للسدّة (الدكة)

(لوحة رقم ١٣ أ)

(كليشيه كريسول)

المنارة الكبيرة

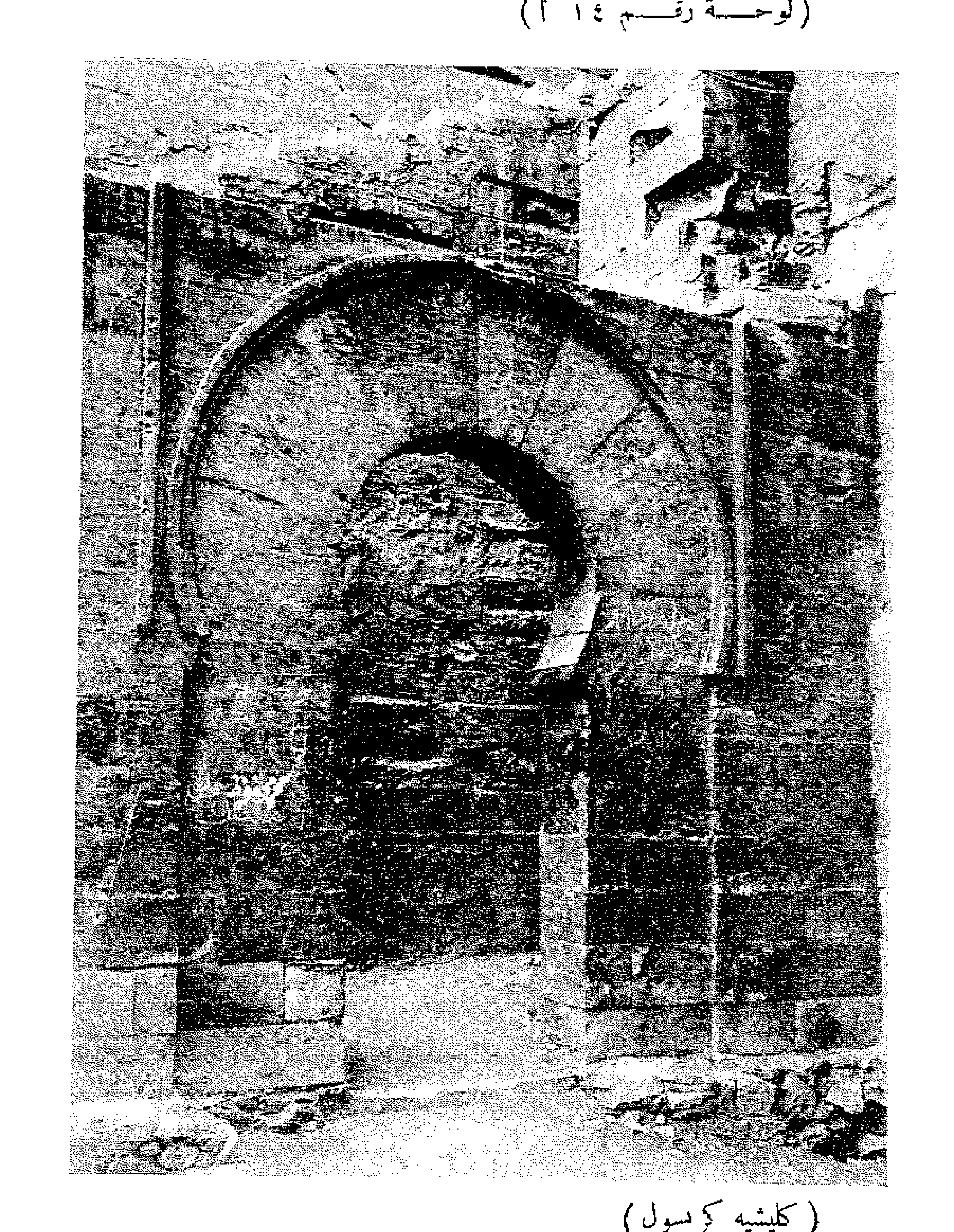
(ب)



(من كتاب "سامرا" لهرزفلد)

منارة سامرا المعروفة بالملوية بالعراق

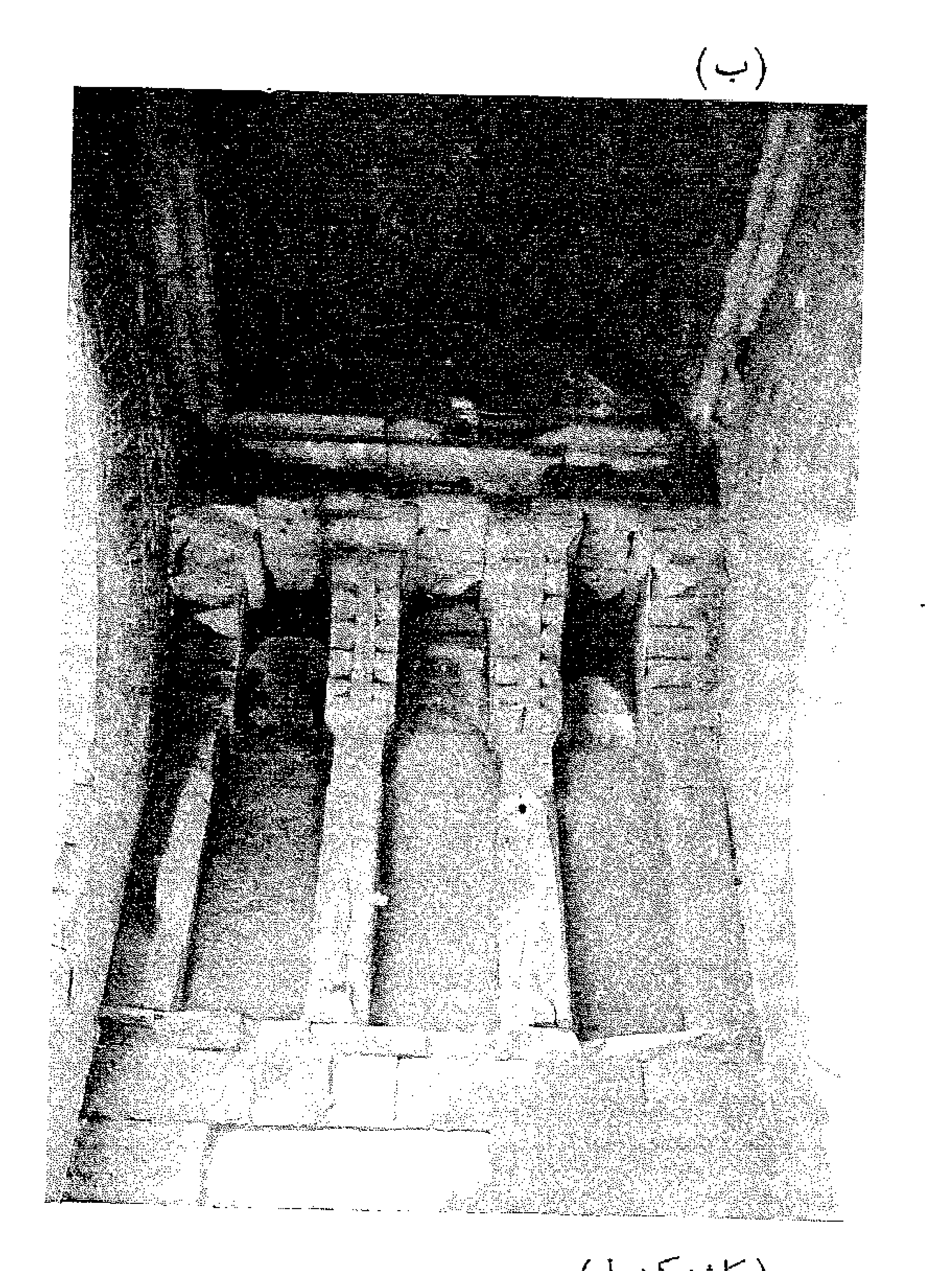
(لوحة رقم ١٤ أ)



(كليشيه كريسول)

باب سلم المنارة الكبيرة من الرواق الخارجى الشمالى الغربى

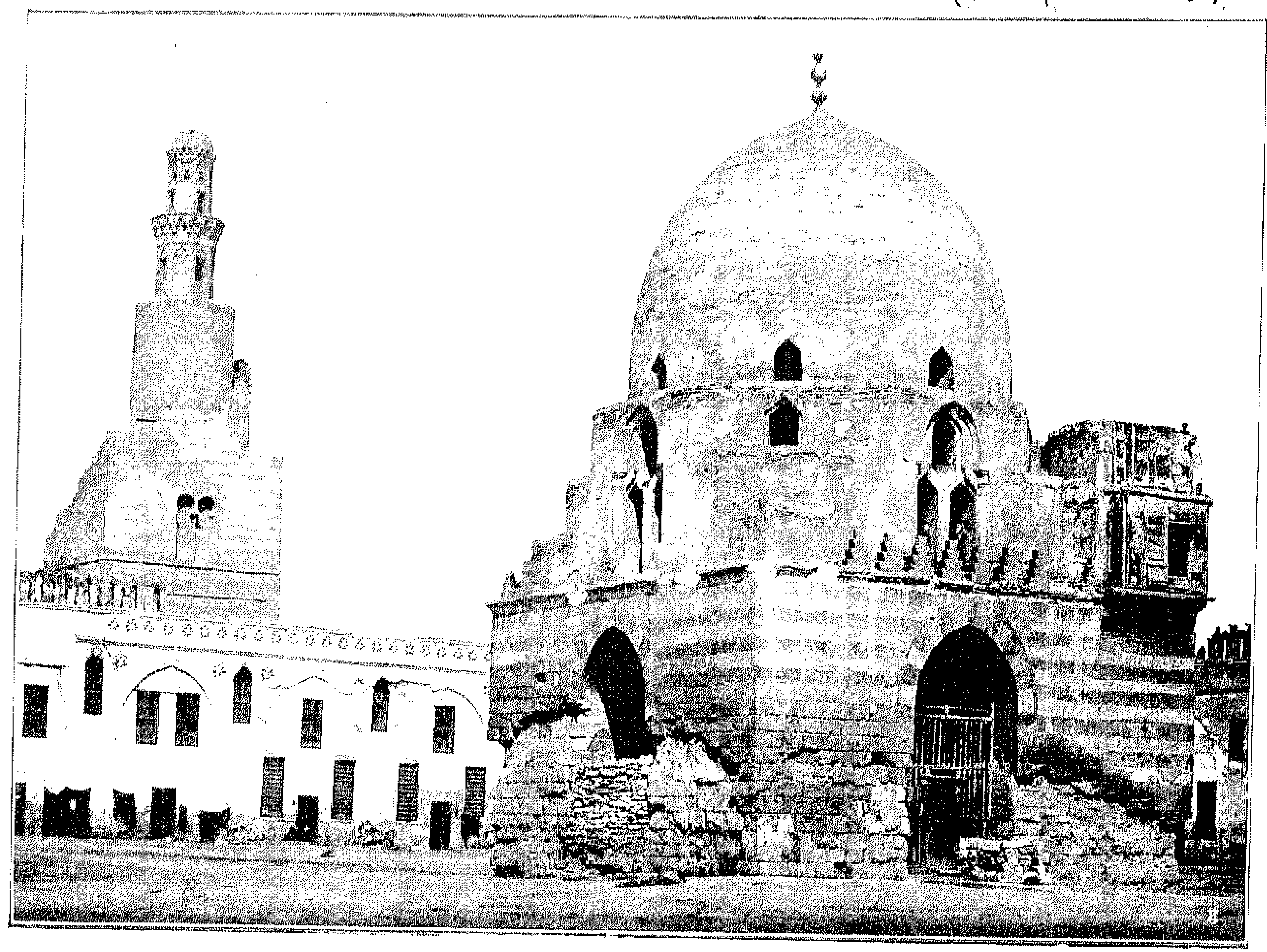
(ب)



(كليشيه كريسول)

حرمدانات وسقف الطرقة بين المنارة الكبيرة والمسجد

(لوحـــة رقـــم ١٥ أ)

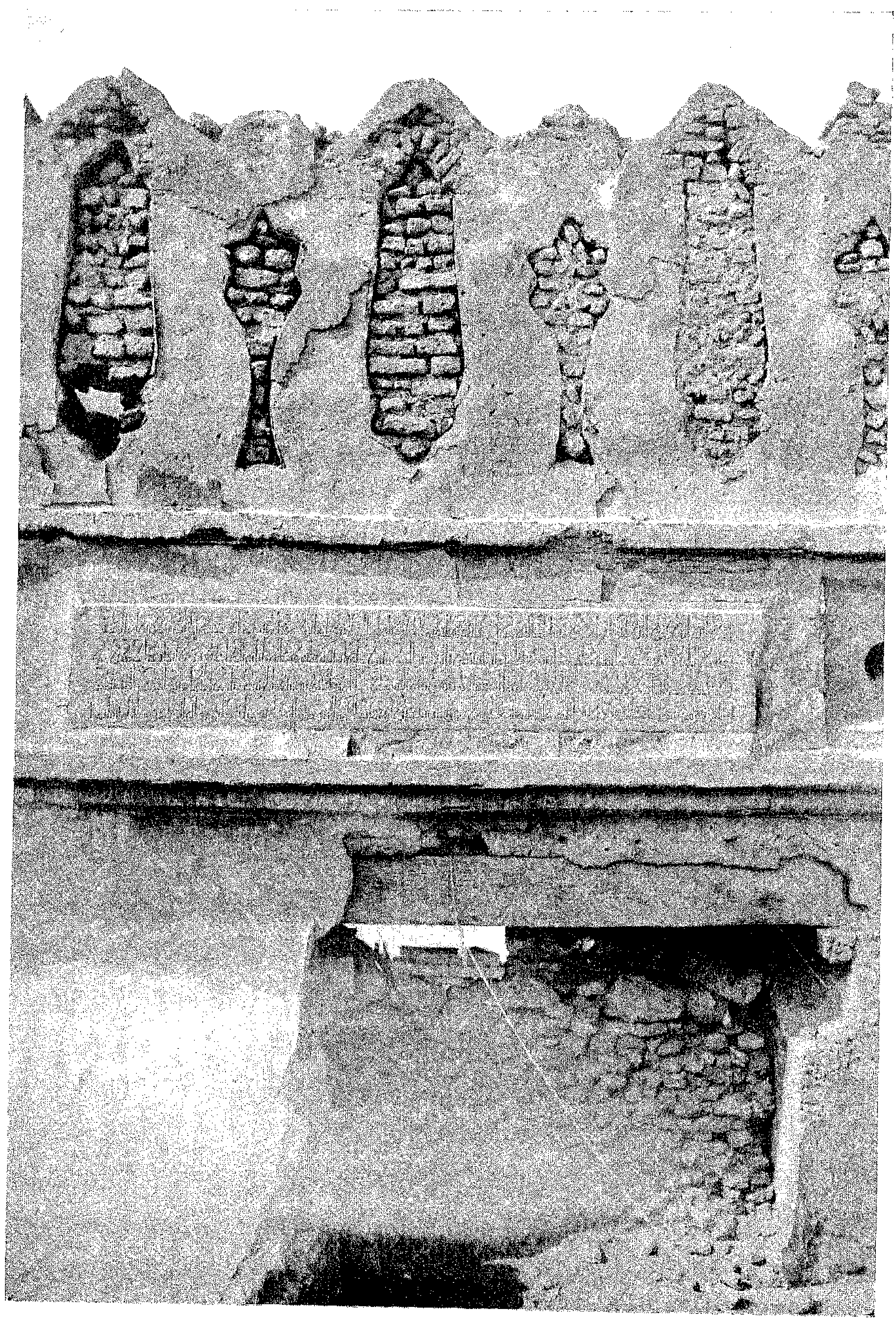


(من مجموعة لجنة الآثار) منظر الصحن قبل اصلاح الأروقة الغربية

(ب)

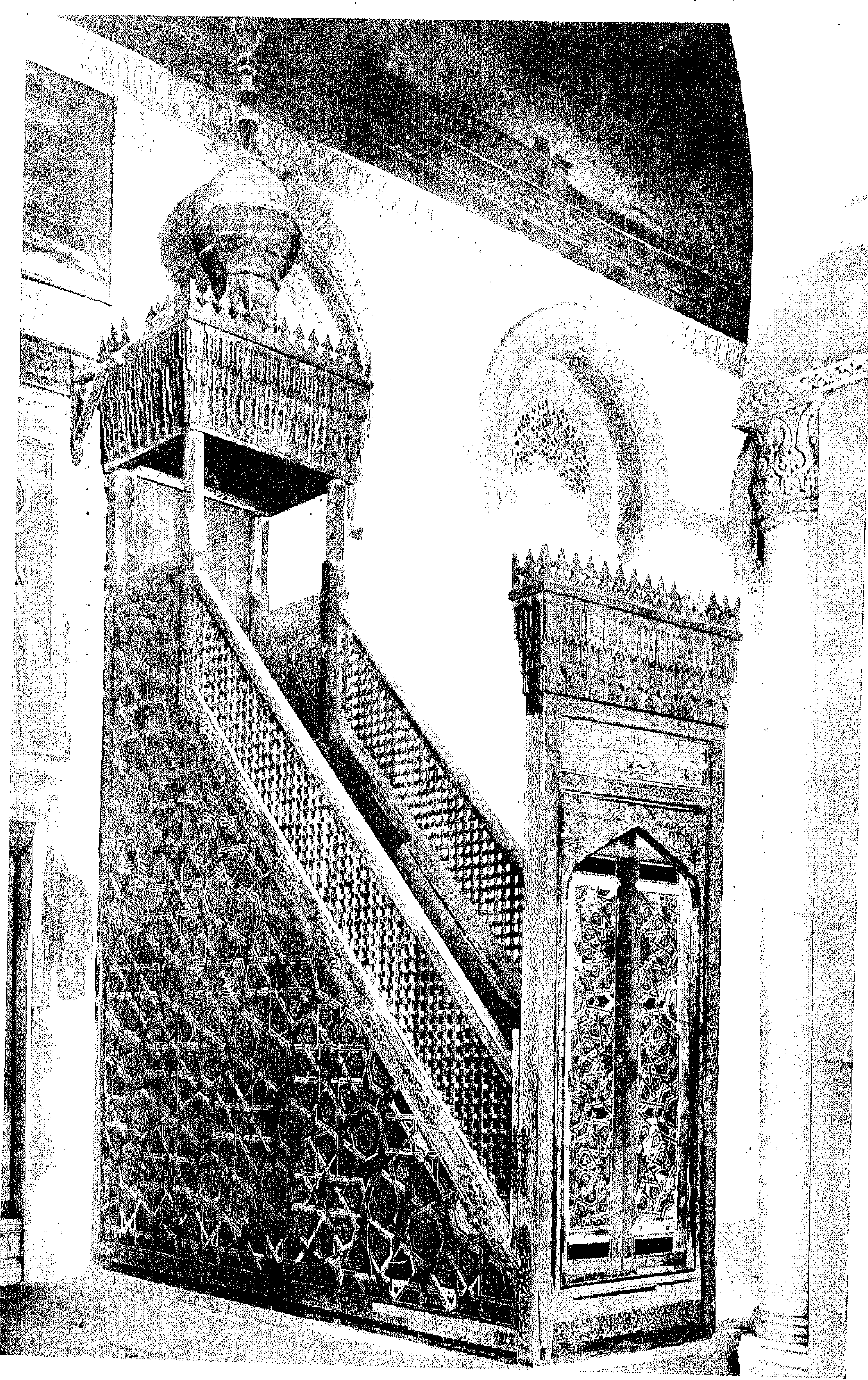
(من مجمـوعة لجنــة الآثار)

وجهة الأروقة الغربية بعد الاصلاح



(كليشيه كريسول)

لوح تاريخى لعمارة بدر الجمالى بأعلى الباب الأخير الشرقى بسور الرواق الشمالى الشرقى الخارجى



المنـــبر

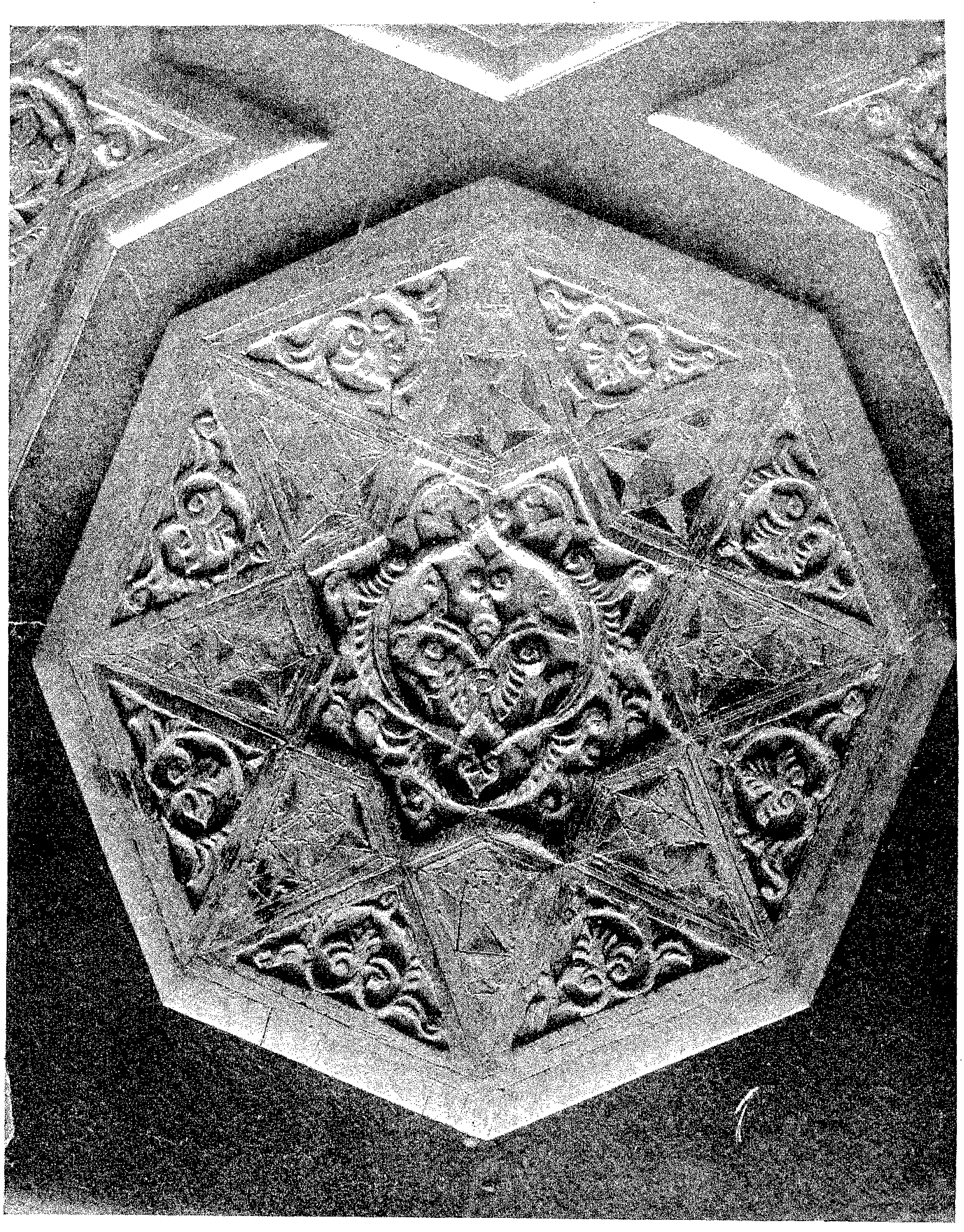
(لوحـــة رقـــم ١٨)



(من مجمـوعة لجنـة الآثار)

بعض تفاصيل من المنـــبر

(لوحـــة رقـــم ١٩)



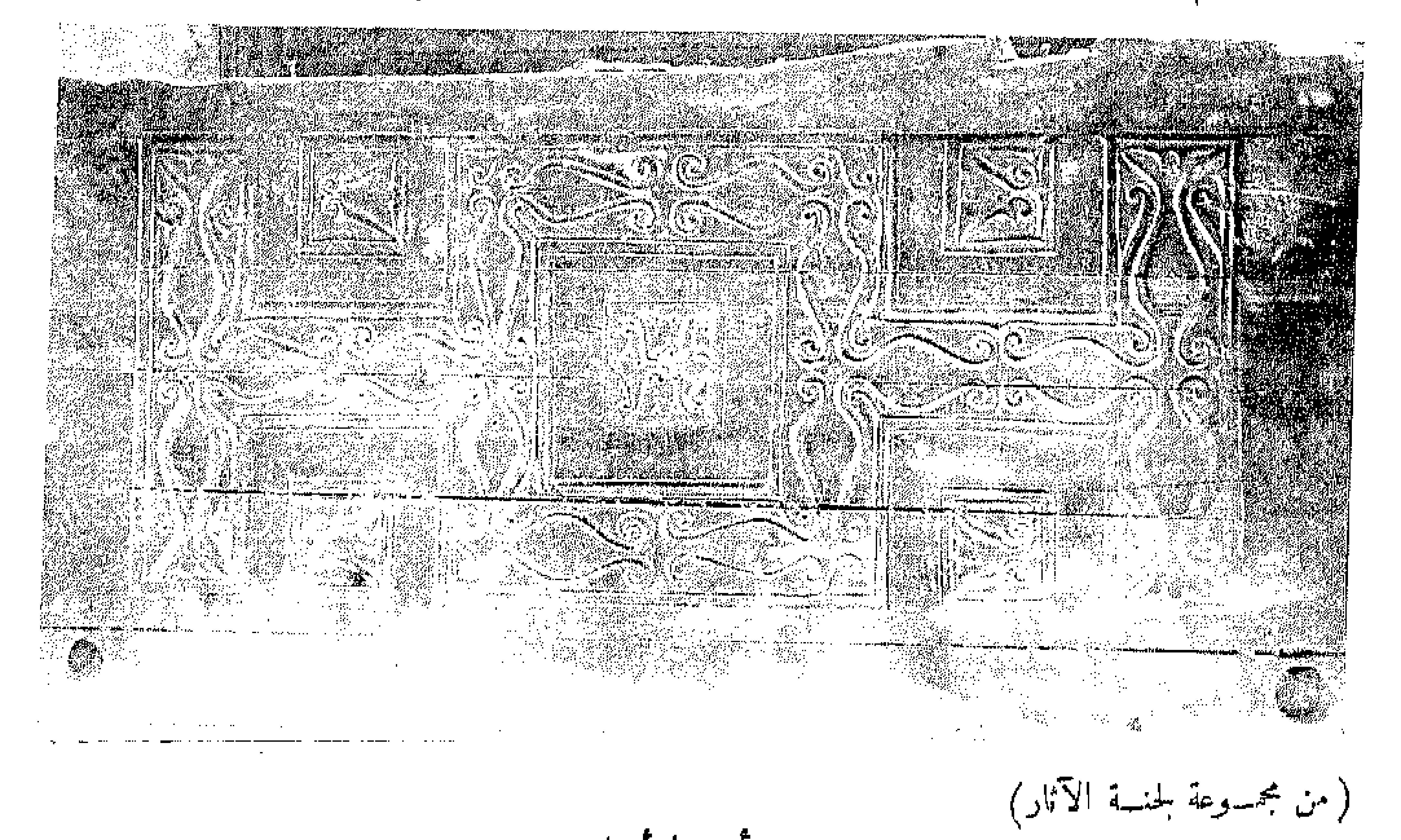
(من مجمـوعة لجنـة الآثار)

بعض تفاصيل من المنـــبر



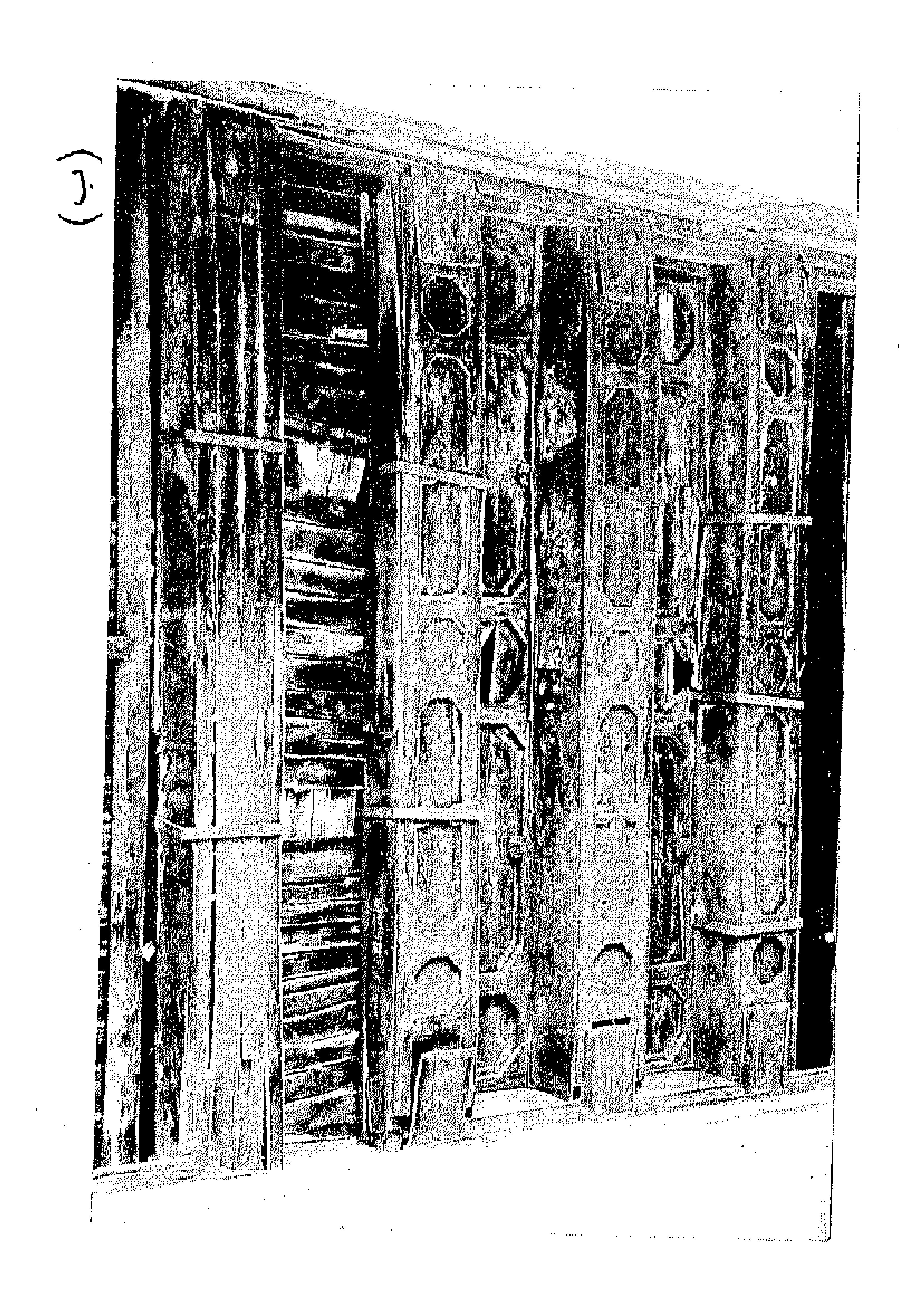
منظـــر آخـــر للمنـــبر

(لوحة رقم ٢١ أ)



(من مجموعة لجنة الآثار)

عتب أحد الأبواب



(من مجموعة لجنة الآثار)

جزء من السقف القديم